الخطوة الأولى
نحو الآفاق

الشيخ حسن الرمضاني

ترجمة: عرفان محمود

مركز الآفاق للدراسات الإسلامية


مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق
في الكفة الأخرى لرجح إيمانه .
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com


بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين



الخطوة الأولى

نحو الآفاق

الخطوة الأولى

نحو الآفاق

الشيخ حسن الرمضاني

ترجمة : عرفان محمود



مركز الآفاق للدراسات الإسلامية

مركز الآفاق للدراسات الإسلامية

❁ اسم الكتاب: .... الخطوة الأولى نحو الآفاق
❁ تأليف: .... الشيخ حسن الرمضاني
❁ الناشر: .... مركز الآفاق للدراسات الإسلامية
❁ الطبعة: .... الأولى/شهر رمضان/ ١٤٢٣هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة المركز

إن الديانات السماوية تهدف من خلال تشريعاتها وقوانينها إلى تزكية الإنسان وتخليصه من رق العبودية للموجودات المصطنعة والمفتقرة في ذاتها واقتضت حكمته البالغة أن يتحقق بلوغ الكمال الإنساني من خلال إرادة الإنسان واختياره، فجعلت له قوانين وتشريعات متوافقة مع فطرته الوجودية ومحققة للغرض من خلقه، وشاملة لجميع احتياجاته، وما يحقق هدفه.

ومن هذا المبدأ كان تركيز الدين الإسلامي على تهذيب النفس وتزكيتها رفقد تمثل هذا البعد في تشريعات عدة بينها القرآن الكريم وهو كتاب هداية للبشرية، كما أفصح عنها رسول الإسلام في مناسبات عدة وحث أتباعه ومناصريه إليها، فأصبحت النفس محور التفكير للشخصية السوية، وبداية الطريق لمنشدي الإصلاح، وللراغبين في الكمال والوصول إلى رضوان الله.

ولقد تألق المذهب الجعفري في أبحاثه الأخلاقية تبعا للهداة من آل محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، الذين كانوا في حياتهم ودعوتهم آيةَ الحقِ وَمظهراً من مظاهرِ الجلال والجمال، فذا نهجُ البلاغة زاخرٌ بالحكم والمواعظ، زادُ العارفين وملاذُ المؤمنين، وذا زبورِ آل محمد صحيفةُ ذي الثفنات منهم، ترتل في

محاريب التضرع والابتهال، وتتكرر في صفحاتها، وفي مضامين أدعيتها دعوات النظر للنفس لمعرفتها وإصلاحها لبلوغ أعلى الدرجات.

وهكذا تميزت جامعة علوم آل محمد بالأبحاث الأخلاقية، وبالمعرفة السلوكية، فكانت ولا زالت تستقي معارفها من عذب الوحي، وتُبين ضوابطها من لسان التنزيل، فكانت هذه المجموعة من الأبحاث العلمية والأخلاقية التي سطرها علم من الأعلام، أستاذ الأخلاق والمعرفة، في مدينة الفقاهة قم المقدسة الحجة الفاضل الشيخ حسن الرمضاني حفظه الله تعالى.

ونظراً لسيطرة عالم المادة، وشيوع مفاهيم الغرب عامة، وغزوها العالم الإسلامي، وتلاشي بعض مظاهر القيم والمثل من جيل الشباب، تتأكد الحاجة للأبحاث الأخلاقية في معالجة ضياع الإنسان وعبوديته للمحدود، وتكشف عن شمولية الدين في مواجهة التيارات الانحرافية التي تتصف بالتفريط تارة والإفراط أخرى.

لهذه الغاية السامية، كان هذا الكتاب المفيد ذو سلاسة في التعبير وتبويب منهجي، ومعالجة دقيقة، مستقاة من كتاب الله وعترته أهل بيته عليهم السلام، قرر مركز الآفاق للدراسات الإسلامية وفي أول عمل له ترجمته، وتقديمه للعالم الإسلامي، على أمل أن تتلوها خطوات مكملة له.

والمركز يتقدم بالشكر عرفاناً وتقديراً للمترجم الأخ عرفان محمود ولفريق العمل في المركز الذي شارك في إخراج هذا الكتاب للقراء الكرام، سائلين العلي القدير أن يجعل ذلك في ميزان أعمالهم.

مقدمة المترجم

خلق الله ـ جلت قدرته ـ الإنسان في ((أحسن تقويم))، لأنه المخلوق الذي أهله تبارك وتعالى للعروج إلى أعلى عليين، وأكرمه إذ جعله خليفةً له ـ جل جلاله ـ في أرضه، فقد تعلقت إرادته ـ جلت حكمته ـ برفع هذا الإنسان ـ كنوع ـ إلى هذا المقام السامي، ودعا كل إنسان إلى العروج إلى ما يناسبه وقُدّر له من مراتب هذا المقام الرفيع.

ولكن حكمته ـ وهو الحكيم العليم ـ شاءت أن يكون عروج هذا المخلوق المكرم إلى تلك المقامات الكريمة من خلال عملية طوعية جهادية في السير والسلوك إلى الله جل وعلا لأن هذه العمليّة هي التي تؤهل الإنسان بالفعل لبلوغ مقام الخلافة الإلهية السامي بعد أن أهله تقويمه الأحسن بالقوة لها.

من هنا كانت على الدوام تقف ـ في مقابل الدعوة الإلهية للعروج والتسامي في مراتب الكمال ـ الأهواء النفسانية والإغراءات الشيطانية الحقودة وهي تترصد لحركة هذا المرشح الوحيد من بين

المخلوقات لخلافة الله، وتدعوه للإفساد في الأرض والإخلاد إليها وتسعى لأن تهوى به في وادٍ سحيقٍ من وديان أسفل سافلين لكي تنزله من مقام الكرامة الإنسانية إلى مرتبة الأنعام السائمة بل وأضل سبيلاً؛ لأنه يفقد حينئذٍ كلا ((المشيتين))؛ فلا هو يحفظ ((مشية)) الإنسان ولا يستطيع أن يحسن ((مشية)) الأنعام. إذ أن ((كلاً ميسر لما خُلق)).

وشاءت مشيئة الرؤوف الرحيم ـ وكل مشيئته رأفة ورحمة ـ أن تعين هذا المرشح للخلافة على مواجهة تلك الإغراءات بأن جعلت في وجوده ((نفساً لوامة)) تحذره من هذا السقوط وتنهاه عنه وتدعوه إلى الخير حتى إذا كان غارقاً في نومة الإخلاد إلى الأرض وغفلة تخطف المعاصي لأنوار فطرته الإلهية.

فإذا استجاب لنسائم الرحمة الإلهية المنبعثة من فطرته الإلهية وتنور بأنوار اليقظة ـ التي عدها بعض أهل المعرفة أولى منازل السير والسلوك إلى الله، واعتبرها آخرون منهم مقدمة هذا السير وليست من منازله ـ؛ حينئذٍ يأخذُ بالتطلع إلى طي هذا الصراط الوضاء الموصل إلى مراتب مقام ((خليفة الله))، وعندها يجد أمامه عقبةً كؤوداً تصده عن هذا المسير يتخندق خلفها عدواه العتيدان: النفس الأمارة بالسوء ومعها أهواءها وشهواتها المتنوعة، والشيطان الذي اقسم على

بذل كل ما يستطيع لإبعاد الإنسان عن صراط الله المستقيم ومعه إغراءاته المتنوعة وتضليلاته الخفية ومكائده الدقيقة. أما العقبة نفسها فهي المعاصي والذنوب الكاشفة عن الإخلاد إلى الأرض والسير بالاتجاه المعاكس للصراط الموصل إلى الله جل جلاله، فكل معصية هي ـ في حقيقتها ـ خطوة إلى الوراء.

وليس صعباً على الإنسان أن يدرك ـ بعد تنوره بنور اليقظة ـ أن مفتاح السير والسلوك إلى الله جل وعلا والعروج إلى تلك المقامات الكمالية السامية والفوز بمقاعد الصدق الكريمة عند المليك المقتدر؛ هو بيد التقوى والورع عن الذنوب والمعاصي واقتحام عقبتها. ومع إدراك هذه الحقيقة يأخذ بالبحث عن سبل الفوز بهذه التقوى العزيزة والمعزة لأصحابها، وعن كيفية التغلب على إغراءات الشيطانية القوية والمستقوية بحليف في داخله يتمثل في رغبات النفس وأهوائها وميولها المستمرة للحصول على اللذائذ التي تتوهم وجودها في المعاصي المغرية. فالسؤال المحوري هنا هو: ما هو السبيل للتحرر من أسر المعاصي؟ وكيف يمكن الخلاص من حالة الضعف في مواجهتها والإنسان قد خُلق ضعيفاً؟

ومما لا ريب فيه أن الحصول على الأجوبة الشافية بشأن هذا الموضوع مطلب مهم لا غنى لطالب النجاة عنه، ومن أهمية هذا

المطلب تبرز قيمة هذه الدراسة القيمة التي نقدم ترجمتها لقراء العربية، فهي محاولة جادة للإجابة على الأسئلة المصيرية المتقدمة من خلال منهج يقوم على قاعدة علمية رصينة هي: أن المعالجة السليمة لأي حالة مرضية أو ظاهرة غير مطلوبة تكمن في معرفة أسبابها أولاً ثم معرفة السبل السليمة لإزالة كل سبب منها بما يتناسب معه، وهذا ما حاول المؤلف الفاضل بيانَهُ انطلاقاً من أحكام الفطرة الإلهية وفيها منطلق الدين القيم الذي أودع الله تبارك وتعالى أصوله في وجود كل إنسان؛ وكذلك انطلاقاً من وصايا وبيانات الثقلين: كتاب الله المجيد وهو النور الذي فيه شفاء الصدور من كل داء؛ وأهل بيت النبوة عليهم السلام وهم معلمو الكتاب والحكمة ومزكو النفوس وأطباء الأرواح، وهذه مميزات مهمة في هذه الدراسة تزيد من قيمتها وجدارتها بأن تحظى بالمطالعة الدقيقة من مطالبي الكمال الحقيقي والراغبين في أن يكون الانتصار حليفهم في جهادهم الأكبر.

ونرى من الضروري؛ ونحن نقدم هذه الدراسة لأعزائنا قراء العربية؛ التنبيه ـ ولو بنحو الاختصار ـ إلى نقاطٍ تكميلية عامة نعتقد أنها تمثل منطلقات أساسية لا غنى عنها للتغلب على عقبة المعاصي والتحلي بالتقوى والورع كزادٍ أساسي لطي طريق الوصول إلى مقامات القرب الإلهي، وهي في الواقع تمثل أيضاً أسباباً إلهية لا غنى

للمؤمن عنها في جميع منازل السلوك ومعارج الكمال. وهي:

أولاً: التحلي بالهمة العالية لبلوغ المقصود.

ثانياً: الاستعانة بالله تبارك وتعالى والتوكل عليه

ثالثاً: الانتباه إلى مراتب المعاصي وعدم الاغترار بالتطهر من بعض مراتبها.

رابعاً: الأخذ بمبدأ التدرج والرفق بالنفس ضمن نهيها عن المعاصي.

خامساً: ترسيخ الإخلاص لله وابتغاء مرضاته في هذا التحرك.

هذه هي ـ أعزاءنا ـ أهم الأصول التي ينبغي لطالبي القرب الإلهي رعايتها، وهي بلورة لما ورد في الكثير من النصوص الشرعية التي لا يتسع المقام لذكرها، نسأل الله تبارك وتعالى أن يعيننا جميعاً على العمل بها فهي من مصاديق التمسك بعرى الثقلين والأخذ بولاية أهل بيت النبوة عليهم السلام وهي وسيلة التطهر من كل ذنب ورجس؛ لنبشر أنفسنا بأننا قد طهرنا بولايتهم عليهم السلام إنه قريب مجيب.

﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

مقدمة المؤلف

ظهر ـ قبل انتصار الثورة الإسلامية العظيمة وإقامة الحكومة الدينية في إيران ـ انحراف مشهود وخطير في أفكار وعقائد الأمة الإسلامية أدى إلى إبعادها عن الإسلام الأصيل وتخلفها في المجالات الاجتماعية والسياسية، وقد تمثل هذا الانحراف في تحجيم الإسلام ضمن مجموعة قليلة من الوصايا الأخلاقية والعبادات الفردية.

وقد تم إنقاذ الأمة من هذا الانحراف المدمر بألطاف إلهية خاصة شملتها وببركة الهمة العالية لمنور القرن الأخير آية الله العظمى الإمام الخميني قدس سره الذي حرر الإسلام من أسر الأوهام ومن الانحسار في زوايا البيوت واقتحم به ميادين السياسة والحكومة، فلله الحمد وله المنة.

واليوم، وبعد انقضاء عدة سنين على انتصار وتحقق حاكمية الثورة الإسلامية؛ فإن انحرافاً من نمط آخر هو في طور الظهور والتبلور وهو يتحرك باتجاه حصر الإسلام في سجن آخر أخطر من سابقه إذا لم تُتخذ إجراءات جدية وشاملة لتطويقه.

وهذا الانحراف الجديد هو حصر الإسلام ضمن إطار مجموعة من القضايا السياسية الشعارية ومجموعة من القوانين والمقررات الاجتماعية الجافة؛ ونتيجة هذا الانحراف ـ الذي هو أخذ في الاستقواء يوماً بعد آخر مع الأسف ـ هي إبعاد الناس عن القضايا الأخلاقية المهمة والقيم المعنوية السامية.

ومما لا ريب فيه أن منهج التفكير الأول هو انحراف عن الإسلام الأصيل ومحكوم بالتفريط؛ في حين أن منهج التفكير الثاني آخذ بجانب الإفراط فهو أيضاً انحراف عن الإسلام النقي؛ وذلك لأن الإسلام الحق دين جامع وكامل يشمل مختلف المجالات الفردية والاجتماعية والسياسية والأخلاقية والعبادية والعلمية والعملية؛ ولا يستطيع الإنسان أن يدعي أنه ملتزم بالإسلام ما لم يكن ساعياً في الالتزام العملي بالأوامر والنواهي الإسلامية في مختلف المجالات السياسية والاجتماعية والأخلاقية والمعنوية وهو يضعها جميعاً نصب عينيه.

من هنا؛ فإن ما نراه في بعض الحالات من زوال قبح بعض المعاصي؛ وفقدان الكثير من الناس للحساسية والاهتمام المطلوب تجاه القضايا الأخلاقية والقيم المعنوية؛ وهم رغم ذلك يتوهمون أنفسهم أنهم مسلمون مثاليون: هو في الواقع انحراف خطير وجسيم يجب الاستعاذة بالله من عواقبه الوخيمة.

والكتاب الذي نضعه بين يديك ـ أخي العزيز ـ هو حركة ـ وإن كانت ضعيفة ـ على طريق إحياء روح التقوى والورع واجتناب المعاصي والمفاسد الأخلاقية وترسيخ هذه الروح في القلوب.

والأمل هو أن تحظى هذه الخدمة المتواضعة بقبول الحق تبارك وتعالى، وتكون عوناً للمجتمع الإسلامي على طريق الوصول إلى الأهداف الإسلامية والفوز بالقيم الإلهية السامية والتحلي بالتقوى ﴿**وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ**﴾ .

قم ـ حسن رمضاني

١٣ / شعبان / ١٤١٦

الفصل الأول
أهمية التقوى وسبل التحلي بها

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمـنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي جعل الكتابَ هدىً للمتقين، والصلاة والسلام على مَن هو أفضل الأنبياء والمرسلين وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين.

أهمية التقوى

التقوى والورع واجتناب الرجس والمعاصي، هي من الأمور التي حظيت بأهمية خاصةٍ في الثقافة الإسلامية والنصوص الدينية؛ بل يمكن القول ـ حقاً ـ أنها منطلق وقاعدة تحلي الإنسان بجميع الكمالات والعروج إلى المقامات المعنوية السامية. فإذا أراد الاهتداء إلى الصراط المستقيم والفوز بالاستهداء بالتعاليم السماوية والمعارف القرآنية؛ فإن التقوى مفتاح ذلك: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[1].

---

(١) البقرة: ٢.

وإذا أراد أن يحظى بمزيد الكرامة عند الله سبحانه فإن التقوى هي أصل وميزان الفوز بذلك: **﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾**[١]. وإذا أراد تمييز الحق عن الباطل ـ مهما كانت ظواهرهما ـ ومعرفة حقيقة كل منهما في لوابس الحوادث والفتن وظلمات الأوهام، فإن التقوى هي الوسيلة لذلك: **﴿إِن تَتَّقُواْ اللهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً﴾**[٢]، وإذا أراد النجاة من الإغراءات الشيطانية والوساوس النفسانية وقيود هذا العالم، والأمن من شرورها؛ فإن السبيل لذلك يكمن في التقوى: **﴿وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾**[٣]؛ وإذا رغب في الرزق الإلهي المعنوي فإن قناته هي التقوى: **﴿وَمَن يَتَّقِ اللهَ... وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾**[٤]؛ وإذا أراد أن تكون أعماله مثمرة نافعة ومقبولة عند الله، فإن التقوى هي طريقه لذلك: **﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾**[٥]، وبالتالي إذا أراد أن يكون محبوباً عزيزاً عند الله وأن تكون له حسن العاقبة، فإن التقوى هي السبيل لذلك: **﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾**[٦]،

---

(١) الحجرات: ١٣.

(٢) الأنفال: ٢٩.

(٣) الطلاق: ٢.

(٤) الطلاق: ٣.

(٥) المائدة: ٢٧.

(٦) التوبة: ٧.

﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[١].

إذن فالتقوى والورع عن المحارم والذنوب على الصعيد العملي؛ منبع كل خير وأساس كل سعادة، ولذلك فهي مقدمة على كل عملٍ، وعلى السالك أن يهتم باجتناب المعاصي أشد من اهتمامه بالقيام بأعمال الخير، يوصي رسول الله ﷺ أبا ذر ـ عليه الرحمة ـ قائلاً: ((يا أبا ذر كُنْ بالتقوى أشدَّ اهتماماً منك بالعمل))[٢]، وانطلاقاً من الأصل نفسه يقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: ((اجتناب السيئات أولى من اكتساب الحسنات))[٣].

فاعلم يا عزيزي أن البعيد عن حقائق المعرفة الغريب عن المقامات المعنوية لن يرى أبداً وجه المعرفة والسعادة ـ إذا لم يلتزم عرى التقوى ـ حتى لو قام بأشق الأعمال وأحمزها، فحاله حال المريض الذي لا يرى وجه الصحة والعافية ـ إذا لم يلتزم عرى الحمية والوقاية ـ حتى لو تناول أقوى الأدوية وأشدها تأثيراً. روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((إنكم لو صليتم حتى تكونوا كالحنايا، وصمتم حتى تكونوا كالأوتار، ما ينفعكم ذلك إلا بورع))[٤].

---

(١) القصص: ٨٣.

(٢) بحار الأنوار (العلامة المجلسي) ج٧٤ ص٨٦.

(٣) غرر الحكم ودرر الكلم، عبد الواحد الآمدي، قسم حرف الألف.

(٤) بحار الأنوار، ج٧٤، ص٨٧.

يقول الشاعر العارف جلال الدين الرومي:

ما در اين انبار گندم مى‌كنيم — گندم جمع آمده گُم مى‌كنيم
مى‌نينديشيم آخر ما به هوش — كين خلل در گندم است از مكر موش
موش تا آنبار ما حفره زدست — وزفَنَش انبار ما ويران شدست
اوّل اى جان دفعِ شرِّموش كن — وآنگهان در جمع گندم جوش كن
بشنو از اخبار آن صدرِ صُدور — لا صلوةَ تمَّ إلاّ بالحُضُور
گرنه موشى دزد در انبارِ ماست — گندمِ اعمال چل ساله كجاست؟
ريزه ريزه صدقِ هر روزه چرا — جمع مى‌نايد درين انبار ما(١)

يشبه الشاعر هنا حال الذي يجتهد في الأعمال العبادية ولكن دون أن يتورع عن المعاصي بحال الذي يجتهد في ادخار القمح حبة

---

(١) ديوان جلال الدين الرومي المولوي (مثنوي معنوي)، تصحيح نيكلسون، الدفتر الأول، ص٢٤. [ما ترجمته النثرية]: ـ ندخر في هذا المخزن قمحاً، لكن نضيع هذا القمح المخزون
نغفل عن السر ولا نفكر فيه، لا ننتبه إلى أن العلة تكمن في مكر الفئران
لقد اتخذت الفئران نفقاً إلى مخزن قمحنا وأتلفت ما فيه
فادفع أولاً ـ يا عزيزي ـ شر الفئران ثم انشط في ادخار القمح
واسمع المروي عن صدر الصدور: لا صلاة تتمُ إلا بالحضور
فإذا لم تكن الفئران السارقة تجول في مخزننا؛ فأين إذن أعمالنا على مدى أربعين سنة؟!
ولماذا لا يتجمع في مخزننا ما نجمعه من أعمال الخير ذرة ذرة؟!

حبة ولكن دون أن يدفع عنها شر الفئران المهاجمة فلا يكون نصيبه من جمع القمح سوى النصب والتعب، كذلك حال المجتهد في العبادات مع ابتلائِهِ بالذنوب فلن يحصد سوى التعب والمشقة لأن الذنوب تأكل حسناته مثلما تأكل الفئران القمح.

السبيل لتحصيل التقوى

قد تسأل ـ بعد أن عرفت أهمية التقوى والورع عن المعاصي ـ السؤال التالي: كيف يمكن للإنسان أن يكون تقياً؟ وكيف يمكن أن يطهر حياته من رجس الذنوب؟ وقد تقول: كلما اتخذنا ـ أنا وأمثالي ـ قراراً بالسيطرة على النفس وتجنب الذنوب والتورع عنها نجحنا في العمل بهذا القرار بعض الشيء يوماً أو يومين لكننا نعجز عن متابعة ذلك ونرجع إلى ما كنا عليه بعد فترةٍ وجيزة، فهل ثمة ما نستعين به للثبات والاستقامة في السير على طريق التقوى والورع عن الذنوب؟

للإجابة على هذا السؤال نقول: يا عزيزي! إن مما لا شك فيه أن لارتكاب الذنوب والسقوط في المعاصي ـ وكسائر الأمور الأخرى ـ أسباباً وعللاً لا يمكن النجاح في التخلص من الوقوع فيها إلا بمعرفتها ـ أعني الأسباب والعلل ـ ثم إزالة كلاً منها بالأسلوب

المناسب له. ولذلك ينبغي لك أولاً السعي ـ بكل جهدك ـ للتعرف على أسباب ارتكاب المعاصي، ثم العمل لإزالة كل منها بما يناسبه لكي يكون بإمكانك التحرر ـ وبصورة تدريجية ـ من أسر المعاصي فتطهر وجودك من لوثها.

أسباب ارتكاب المعاصي

وقد تسال الآن عن أسباب الوقوع في المعاصي وكيف يرتكب المسلم المؤمن المعصية؟ والجواب هو: توجد عدة عوامل مؤثرة في ذلك مستقلة أو مجتمعة هي: ـ

أ: فقدان أو ضعف الإيمان بالمبدأ والمعاد وتبعات وآثار الأعمال.

ب: الغفلة.

ج: ضعف الإرادة أمام فوران الغرائز والشهوات.

وتوضيح هذا الإجمال هو: أن بعض الناس يرتكبون المعاصي لأنهم فاقدون للإيمان أو لإن إيمانهم ضعيف، فرغم أنهم يقرون ـ باللسان ـ بوجود الله وباليوم الآخر وبالثواب والعقاب على كل عمل صالح أو طالح، لكنك إذا رجعت إلى قلوبهم ونظرت فيها لوجدتها خالية من أي أثر للاعتقاد بهذه الأمور أو أن الاعتقاد بها ضعيف للغاية مختلط بالكثير من الأوهام والخيالات والخرافات؛

ولذلك فمن الطبيعي أن يعجز أصحاب هؤلاء القلوب عن تقديم أوامر ونواهي أولياء الدين على اللذائذ الدنيوية عند التزاحم بينهما، بل ينغمسون في الاستجابة للشهوات واللذات الحيوانية متذرعين بتبريرات من قبيل: ومن ذهب إلى العالم الآخر ورجع مصدقاً لهذه الأقوال؟ إن اللذة الحاضرة القليلة خيرٌ من اللذة العظيمة المؤجلة، فتغريهم مثل هذه التسويلات باتباع أهوائهم والانغماس في المعاصي.

أما الطائفة الثانية من الناس؛ فليست لديهم مشكلة في البناء العقائدي كما هو الحال في الطائفة الأولى، بل على العكس هم يتحلون بالإيمان لكن مشكلتهم هي الغفلة عما يعتقدون به، بمعنى أن الأمور الظاهرية والمشاغل العادية وشؤون الحياة الدنيا اليومية توقعهم في أسر الغفلة عن ذكر الله والمعاد والحساب والعقاب على ذنوبهم، ولذلك فهم لا يفكرون سوى بأمور دنياهم؛ وحاجاتهم العاجلة. ولا يخفى أنهم بذلك لا يتميزون بشيءٍ عن الطائفة الأولى، فهم يقعون مثلهم في ارتكاب المعاصي ويخضعون لأسرها بسهولة.

والطائفة الثالثة لا يوقعهم في أسر المعاصي ضعف الإيمان أو فقدانه أو الغفلة عن المعتقدات كما هو حال الطائفتين السابقتين، فهم معتقدون بالله والمعاد والحساب ومنتبهون إلى هذه العقائد،

لكنهم ـ ورغم ذلك؛ وبسبب ضعف الإرادة ـ يعجزون عن كبح جماح الأهـواء والشـهوات النفسـانية عند تعارضها مع الأوامر الدينية، بل يفقد السيطرة على النفس ويسقطون في المعاصي.

سبل مواجهة أسباب ارتكاب المعاصي

والآن ـ وبعـد أن عرفـت عوامـل وأسـباب ارتكـاب المعاصـي ـ مـن الضـروري أن تـتعرف أيضاً على سبل مواجهتها لكي يحالفك توفيق الـورع عنها بإزالة أسبابها، فنقول: أولاً إذا كان العاصي من الطائفة الأولى؛ أي أن أسسه الاعتقادية ليست بالمستوى المطلوب؛ فعليه ـ قبل كل شيء ـ أن يتسلح بالعقائد السليمة القائمة على الأدلة والبراهين الصحيحة والقوية؛ أي يجب عليه الإقبال على التفكر والتدبر الدقيق والعمـيق في دقـائق الوجـود، وقـراءة مـا كتـبه العلماء الربانيون في أبـواب العقائد، لكي يصل إلى مرتبة من المعروفة يؤمن معها ـ بدون أدنى شك وشبهة ـ بالله تبارك وتعالى وبيوم الحساب وينعقد قلبه على الإيمان بحقيقة: **﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَـرًّا يَرَهُ﴾**[1]: لكي يتمكن ـ ببركة هذا الاعتقاد الراسخ ـ من مراقبة

---

(١) الزلزلة: ٧ ـ ٨.

نفسه واجتناب الأعمال السيئة؛ وإلا فلا يمكن أن يكون الإنسان تقياً بوسيلة الإيمان التقليدي والعقائد الضعيفة التي تتقاذفها الأوهام والشبهات والشكوك، ولذلك فقد ذكر الله تبارك وتعالى ((الإيمان بالغيب)) كأول صفة من صفات المتقين التي أشار إليها في أول سورة البقرة: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ...﴾ [1]، الأمر الذي يكشف أن علاقة الإيمان بالغيب بالتقوى هي من سنخ علاقة العلة بالمعلول، فالإيمان بالغيب علة وسبب للتقوى. ورغم أن التقوى بدورها تكون علة للإيمان في مراتبه العليا؛ ولكن كلامنا الآن عن نقطة البداية في السير وفيها يكون التقدم للإيمان لا للتقوى؛ يُضاف إلى ذلك أن علية الإيمان نسبة إلى التقوى هي علية ((إيجادية)) في حين أن علية الإيمان التقوى في بعض مراتب الإيمان هي علية ((إعدادية)). وعلى أي حال فلا مجال هنا لتفصيل الكلام عن هذه القضية.

إذن، يجب أولاً ـ وبهدف إيجاد التقوى والتحلي بالورع ـ تقوية الإيمان بالغيب الذي يشمل الاعتقاد بالمبدأ والمعاد وتبعات وعواقب الأعمال، وإلا فإن الفاقد لهذا الإيمان أو الذي تكون عقائده غير

---

(١) البقرة: ٢ ـ ٣.

راسخة عاجز عن رعاية التقوى، ولذلك نجد أن أول ما يؤكد عليه الله تبارك وتعالى وهو يخاطب الذين دخلوا ظاهرياً في الإسلام، هو دعوتهم إلى الإيمان الحقيقي بالله ورسوله الأكرم ﷺ فيقول عز من قائل: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ...﴾**[(١)].

فإذا كنت ـ يا عزيزي ـ لم تسلم قلبك بعد للإيمان الحقيقي والاعتقاد الراسخ بالمبدأ والمعاد؛ وإذا كنت لا زلت في مرحلة الشك؛ ومع ذلك تسعى للحصول على التقوى وتتوقع الدخول في صفوف المتقين فاعلم أن سعيك عقيم وتوقعك في غير محله، والسبب هو أن شجرة وجودك آخذة بالذبول بسبب الابتعاد عن نبع المعارف اليقينية، في حين أن سعيك منصب على إزالة الغبار والأوساخ عن أوراقها في حين أن ما يلزمك هو تدارك حالها وإحيائها بسقيها بماء العلوم والمعارف!! أما سمعت قول الشاعر:

خانه از پپای بست ويران است　　　خواجه در بند نقش ايوان است[(٢)]

---

(١) الصف: ٩ ـ ١٠.

(٢) [ما ترجمته النثرية العربية]: البيت منهار من الأساس و((الخواجة)) أسير إصلاح نقوش الإيوان.

بناءً على ما تقدم؛ ينبغي لك ـ يا عزيزي ـ أن تجند قواك؛ وقبل كل شيء؛ من أجل تقوية وترسيخ عقائدك والخروج من ظلمات الشك لكي يحالفك ـ ببركة ذلك ـ توفيق التطهر من رجس المعاصي فتلتحق بركب المتقين الحقيقيين.

ثانياً ((المراقبة)) وسيلة إستئصال الغفلة

أما إذا كان العاصي من الطائفة الثانية؛ أي من الذين توقعهم الغفلة عن العقائد في أسر ارتكاب الذنوب، فعليه أن يستعين بالسلاح الذي يسميه أهل السلوك ((المراقبة))، ويعتبرونه مفتاح السعادة والركن الأساس للسير والسلوك إلى الله، أي على الشخص المذكور أن يجتهد في جميع أوقاته وأحواله أن يضع نصب عينية دائماً جميع ما يعتقد به ويوجه إليها بكل ما استطاع فكره وذكره وقلبه، وبذلك يقطع من شجرة وجوده جذور الغفلة التي هي علة الوقوع في المعاصي والذنوب، ولكي يحالفه بذلك توفيق الورع عن المعاصي والابتعاد عن شباكها.

موعظة الإمام الحسين عليه السلام للمبتلي بالمعاصي

نقل العلامة المجلسي ـ رضوان الله عليه ـ في كتابه القيم بحار

الأنـوار روايـة من كتاب جامع الأخبار تناسب كثيراً موضوع حديثنا، ننقلها تبركاً ثم نبينُ ما ورد فيها، قال:

((روي أن الحسين بن علي عليهما السلام جاءه رجل وقال: أنا رجل عاصي ولا أصـبر عـن المعصية فعظني بموعظة. فقال عليه السلام : إفعل خمسة أشياء وأذنب ما شئت:

فأول ذلك: لا تأكل رزق الله وأذنب ما شئت.

والثاني: أخرج من ولاية الله وأذنب ما شئت.

والثالث: أطلب موضعاً لا يراك الله وأذنب ما شئت.

والـرابع: إذا جاء ملك الموت ليقبض روحك فأدفعه عن نفسك وأذنب ما شئت.

والخامس: إذا أدخلك مالك في النار، فلا تدخل في النار وأذنب ما شئت))[١].

وإذا سـألت: لمـاذا ربـط الإمـام الحسين بن علي عليهما السلام بين هذه الأمـور وبين ارتكاب الذنوب؟ وما هي العلاقة بينها وبين الترخيص

---

(١) بحـار الأنـوار، ج٧٨، ص١٢٦. الحديث نقله العلامة المجلسي عن جامع الأخبار منسـوباً للإمام الحسين عليه السلام وضمن باب مواعظه عليه السلام، ولكن هذا الحديث مـروي عن الإمام علي بن الحسين عليهما السلام في النسخة الموجودة من كتاب جامع الأخبار. [المؤلف].

بارتكاب المعاصي؟

فنقول في الجواب: في هذا الحديث الشريف ينبه سيد الشهداء عليه السلام هذا الرجل المذنب على أمور إذا جعلها نصب عينيه أثناء ارتكابه الذنب لأعرض ـ حتماً ـ عن الذنب، وبعبارة أخرى فإن الإمام عليه السلام ينبه هذا العاصي ـ وبهدف تحريره من أسر المعاصي وتخليصه من شرورها ـ إلى استحضار العقائد التي يؤمن بها وإلى نداء فطرته. فالغفلة عنها هي التي توقعه في شباك الذنوب؛ وبذلك فهو عليه السلام يبين للرجل أن هذه الغفلة هي علة وقوعه في المعاصي، فإذا تحرر منها وجعل عقائده نصب عينيه استطاع الخلاص من شر المعاصي.

الفصل الثاني

آثار التوجه

لرازقية الله وقيمومته وحضوره في بعث الورع عن معصيته

التوجه لرازقية الله والورع

عرفنا أن أول ما طلبه الإمام الحسين عليه السلام من الرجل العاصي هو أن يتخذ قراراً قبل ارتكاب المعصية بأن لا يأكل شيئاً من رزق الله، وينبغي الآن أن نعرف سرّ وضعه عليه السلام لهذا الشرط، فنقول بهذا الشأن: إنه عليه السلام يشير هنا إلى أمر فطري بديهي، ويضع إصبعه الشريف على موضع حساس يثير الخجل والحياء في كل إنسان منصف لم يبتعد عن فطرته السليمة، إذ ان كل إنسان يدرك بفطرته ضرورة الخضوع لمن يوفر له احتياجاته المعاشية، فلا يسمح لنفسه أبداً بالقيام بعملٍ لا يرضاه ولي نعمته، بل يسعى لإرضائهِ، وإذا أراد ـ يوماً ـ مخالفة أوامره والعمل بما لا يرضيه فعليه أولاً أن يحرر نفسه من طوق إحسانه له ومنه عليه، لأن الفطرة تحكم بقبح أن تأخذ منه

العون بيد وتطعنه أو تصفعه باليد الأخرى.

إذا كان لك ـ قارئي العزيز ـ صديقاً أقرضك مبلغاً ضخماً من المال، وكنت تسكن منزلاً هو مالكه، وكان يأتيك ـ بين الحين والآخر ـ بالطعام وسائر الاحتياجات المعيشية؛ فهل كنت تسمح لنفسك بالتفوه بأي قول لا يرغب فيه أو بعدم القيام بعمل يطلبه منك أو بالقيام بعمل نهاك عنه؟ لا ريب أنك ستجيب بالنفي لأن الفطرة الإنسانية لا تسمح بذلك، بل إن الغريزة في الكثير من الحيوانات تمنع من ذلك فضلاً عن الفطرة الإنسانية.

ومن هذا الحكم الفطري، يتضح أن على من يريد ارتكاب المعصية والقيام بعمل لا يرضاه الله أن يلتزم بأحد أمور ثلاثة:

إما أن ينكر أن الله هو رازقه؛ وإما أن يمتنع عن الإرتزاق منه سبحانه والإرتزاق من غيره؛ وإما أن يسحق فطرته ووجدانه الإنساني ويقومُ بما تأنف حتى بعض الحيوانات عن القيام به. ولا يخفى أن كل أمر من هذه الأمور الثلاثة يستلزم محذوراً أو محاذير لا يرضى بها العاقل المنصف ابداً؛ فبالنسبة للأمر الأول نقول: هل يمكن للمؤمن بالله أن لا يعتقد بأن الله هو الرازق؟ الإجابة هي بالنفي ولا ريب لأن من المحال سلب صفة ((الرزاقية)) عن الله سبحانه، لأن من لا يرزق ليس هو ((الله))، فمَن لا يرزق إما أن يكون عمله بسبب جهله

باحتياجات المرزوق أو عجزه عن تلبية هذه الاحتياجات، أو بسبب بخله عن العطاء، أي أنه إما أن يكون جاهلاً أو عاجزاً أو بخيلاً، والله سبحانه وتعالى منزه عن الجهل والعجز والبخل، لذلك لا يمكن بحال إنكار رزاقيته.

أما بالنسبة للأمر الثاني، فنسأل: هل يمكن أن يكون غير الله رازقاً؟ فإذا فرضنا إمكانية ذلك نسأل من أين يأتي بالرزق الذي يضعه تحت تصرفكم أو تصرف الآخرين؟ فهو إما أن يكون قد خلق هذا الرزق بنفسه وإما أن يكون قد أخذه من غيره، والحالة الأولى تقتضي أن يكون خالقاً مستقلاً بنفسه وهذا ما تنفيه أدلة وبراهين التوحيد بصورة كاملة، وأما إذا كان قد أخذ هذا الرزق من غيره، وفي هذه الحالة يكون الرازق الحقيقي ليس هو بل ذلك ((الغير))، فَمن هو هذا ((الغير)) الذي هو الرزاق الأصلي ومصدر كل رزق؟ فإن كان هو الله سبحانه وتعالى فهو المطلوب؛ وإن كان غيره رجعنا مرةً أخرى إلى السؤال الأول: هل هو خالق هذا الرزق أم أنه قد أخذه من غيره؟ إذن فثمة محذور لا يمكن لعاقل الإلتزام به.

من هنا يتضح أن الرازق لا يمكن أن يكون سوى الله، ولذلك لا يمكنكم أن تتوجهوا إلى غيره سبحانه وتعالى للارتزاق منه ثم القيام بما ترغبون فيه من مصاديق عصيان الله.

إذن، لا سبيل أمامك ـ يا عزيزي ـ إلا الإقرار بأن الرازق هو الله تبارك وتعالى، وإذا أردت أن تعصيه فعليك: إما أن تمتنع عن تناول شيء من رزقه فتموت؛ وإما أن تصم سمعك عن نداء فطرتك وتتنكر لولي نعمتك، فترتزق منه بيد وتخونه باليد الأخرى.

فكّرْ في الأمر جيداً، ولاحظ: هل أن هذه الشهوات الدنيوية الفانية التي سرعان ما تنقضي لذاتها وتبقى تبعاتها، تستحق أن ترتكب من أجلها هذه الموبقة فتخرج بذلك من منزل ((الإنسانية))، وتلتحق بالجاحدين الذين لهم ظاهر الإنسان لكنهم في الواقع أضل من الأنعام سبيلاً؟

إذا فكرت في الأمر جيداً واستهديت بنور فطرتك، فإنك ـ بلا ريب ـ ستتخذ قراراً حكيماً تترك معه كل ذنب وتعرض عنه مهما كان وتقدم ابتغاء مرضاة الله على كل شيء.

التوجه لقيمومية الله والورع

الأمر الثاني الذي طلبه الإمام الحسين بن علي عليهما السلام من ذاك الرجل العاصي هو أن يخرج ـ قبل ارتكاب الذنب ـ من دائرة الولاية الإلهية، ويحفظ وجوده خارجها ودون الاعتماد على حول الله وقوته، ثم ليذنب ما شاء وليرتكب أي معصية أراد. وهنا لا بد لنا من

الإشارة إلى أمرٍ فطري وبديهي يمثل الأصل الذي يمكن على ضوئهِ معرفة العلاقة بين الخروج من دائرة الولاية والقيمومية الإلهية وبين الإذن بارتكاب المعاصي، وهذا الأصل معتبر عند الجميع وهو: أن الإنسان بطبعه ـ وما دام على فطرته ـ يخضع ويطيع من بيده وجوده وعدمه، فلا يسمح لنفسه أبداً بالتمرد على أوامره، فمثلاً إذا شهر أحد سلاحاً قاتلاً عليك وهددك بالقتل إذا تحركت من مكانك؛ فهل ستسمح لنفسك بالتحرك أم سيجعلك الخوف تجمد في مكانك كالخشبة المسندة؟

لا ريب في انك ستحذر بالكامل ـ إذا كنت راغباً في حفظ نفسك ـ من القيام بأدنى حركة وتجتنب ـ قدر المستطاع ـ القيام بكل أمر لا يرضاه، وذلك لأنك ترى أن حياتك مرهونة بإرادته ـ ظاهرياً بالطبع ـ وهو قادر على قتلك بسهولة. وهذه حالة فطرية يلتزم بها كل إنسان بمقتضى فطرته دون حاجةٍ إلى عاملٍ خارجي، وإذا كانت ثمة حاجة لشيء فهي لا تتعدى دائرة التنبيه لهذه النزعة الفطرية وإثارتها.

وبعد اتضاح هذه الحقيقة نقول: لا مناص لمن أراد ارتكاب الذنب والقيام بما لا يرضاه الله تبارك وتعالى من القيام بأحد أمور ثلاثة:

إما إنكار قيومية الله سبحانه؛ وإما الخروج من دائرتها وإدعاء الاستغناء عنها، وإما الإعراض عن تلك النزعة الفطرية وتجاهلها، وكل واحد من هذه الأمور الثلاثة يستلزم محذوراً لا يمكن الالتزام به:

بالنسبة للأمر الأول نسأل: هل يمكن القبول بنفي القيمومية عن الله سبحانه مع كونه إلهاً؟ وهل يمكن القول بأن الممكنات لا تقوم بالله جلت قدرته؟ واضح أن هذا ما لا يمكن بحال القبول به، لأن البراهين والشواهد العقلية والنقلية دالة على أن واجب الوجود سبحانه هو الحافظ لعالم الممكنات الوجودية وإذا قطع لطفه عنها لحظة واحدة احتواها جميعاً العدم، فهو الممسك بها بحوله وقوته وببركة لطفه تحظى بفيض نعمة الوجود؛ ولجلال الدين المولوي أبيات لطيفة للغاية تشتمل على صور من التمثيل البليغ المبين لشمولية قيومية الله جلت قدرته، منها مثلاً قوله في الدفتر الأول من ديوان المثنوي المعنوي:

ما چو چنگيم وتو زخمه مىزنى	زارى از مانى، تو زارى مىكنى
ما چو نايیم ونوا در ماز تُست	ما چو كوهيم وصدا در مازتُست
ما چو شطرنجيم اندر بُرد ومات	بُرد ومات مازتُست اىخوش صفات
ما كه باشيم اى تو ما را جان جان	تا كه مابشيم با تو در ميان

مـا عـدم هايـيم هسـتى هـاى ما — تـو وجـود مُطلقـى فـانى نمـا
مـا همـه شـيران ولـى شيرِ عَلم — حملـه شـان از بـاد باشد دم به دم
حملـه شـان پـيدا وناپيداسـت باد — آنكـه ناپيداسـت از مـا كـم مـباد
بـاد مـا وبـود مـا از دادِ تُسـت — هسـتى مـا جمله از ايجاد تُست[1]

سئل الحكيم المتألّه المولى هادي السبزواري تتّئ عن هذه الأبيات ومقصـود المولوي فيها، فقال: ((إنه يريد أن يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله)).

---

(١) [ما ترجمته النثرية العربية]:
نحـن مـثل العـود وأنت الذي يضرب بالمضراب، هل يصدر الأنين منا؟ كلا، فأنت الذي يأن!
نحـن قصـبات خاويـة، والصـوت الـذي يصـدر مـنا هـو منك، ونحن كالجبل والصدى المدوي فيه منك
نحن كالشطرنج، وكل الربح والخسارة هي منك يا جميل الصفات
وما نحن؟ ومن نكون؟ أنت روح الروح، ما لنا والوجود وأنت موجود.
نحن أعدام مرايا للوجود وأنت الوجود المطلق الذي يبدو فناء
نحن جميعاً أسود، ولكن كالأسود المنتقشة على اللواء، التي تهجم بحول الريح وقوتّه.
هجـوم تلك الأسود ظاهر أما الخفي فهو دور الريح، فلا تحرمنا ـ اللهم ـ من هذا الدور الخفي!
فريح حولنا وقوتنا هو من فضلك، بل كل وجودنا هو بإيجادك.

وأيضاً يقول في الدفتر الخامس:

يــا خفــيُّ الــذّات مَحْسُــوسَ العَطا — أنـــتَ كَالمـــاء ونَحـــنُ كالـــرَّحى

أنـــتَ كالـــريح ونَحـــنُ كَالغُـــبارِ — تَخـــتَفي الـــرّيحُ وغَـــبراها جهـــار

تـــو بهـــارى ما چو باغِ سبز خوش — اونهـــان وآشـــكارا بخششـــش

تـــو چـــو جـــانى ما مثالِ دست وپا — قـــبض وبسطِ دست از جان شد روا

تـــو چـــو عقلـــى ما مثالِ اين زبان — ايـــن زبـــان از عقـــل دارد اين بيان

تـــو مـــثال شـــادى ومـــا خـــنده ايم — كـــه نتـــيجه شـــادى فرخـــنده ايـــم

جنـــبش ما هر دمى خود اشهد است — كـــه گـــواهِ ذو الجـــلال سرمد است

گـــردش ســـنگ آســـيا در اضطراب — أشـــهد آمـــد بـــر وجودِ جُوى آب[1]

إذن؛ يتضح مما تقدم استحالة سلب القيمومية عن الله وإنكار أنه سبحانه هو القيوم.

أمـا بالنسبة للأمر الثاني فنقول: هل يمكن للعاصي ـ الذي رفع

---

(١) [ما ترجمته النثرية العربية]:

أنت الربيع ونحن مثال الحديقة الغناء، فالمعطي خفي وعطيته ظاهرة

أنـت كالـروح ونحن مثل الأيدي والأرجل، وحركة الأيدي والأرجل لا تكون إلا بالروح

أنت كالعقل ونحن مثل اللسان، وما يبينه اللسان إنما هو من العقل

أنت كالسرور ونحن مثل الضحك، وليس الضحك إلا مظهراً للسرور أجل؛

إن تحركنا يشهد مع كل نَفَسٍ بوجود ذي الجلال السرمدي

مثلما تشهد حركة الرحى على جريان الماء في الساقية

راية التمرد على أوامر الله جلت قدرته ـ الخروج من دائرة قيمومية الحق سبحانه ويحفظ وجوده دون الاعتماد على حول الله وقوته؟ الجواب هو ـ ولا شك ـ بالنفي، لأنه لو أراد أن يدعي الاستغناء عن حول الله وقوته والقدرة على الخروج عن الولاية والقيمومية الإلهية، فعليه أن يقرن هذا الإدعاء بإدعاء آخر هو: أنه بنفسه ((واجب الوجود))، وهذا ما لا يمكن له أن يدعيه، لأنه ممكن الوجود مفتقر لغيره في أصل وجوده، ووجود كل ممكن الوجود مرهون بإرادة واجب الوجود، فلا يمكن أن يكون موجوداً دون الاعتماد على قدرة واجب الوجود.

يروى أن شخصاً سعى ضد الإمام الصادق عليه السلام عند الخليفة العباسي المتجبر المنصور الدوانيقي، وشهد كذباً في سعايته أن الإمام عليه السلام يتآمر ضد الخليفة ويجمع الأموال لدعم المعارضين بهدف إسقاط حكومة بني العباس؛ فقال له الإمام عليه السلام في حضور المنصور: ((تحلف أيها الرجل أن هذا الذي رفعته صحيح؟))

قال: نعم، ثم ابتدأ الرجل باليمين فقال: ((والله الذي لا إله إلا هو الطالب الغالب الحي القيوم...))، فقال له الإمام عليه السلام: ((لا تعجل في يمينك فإني أنا استحلف... قال المنصور: ولما انكرت من هذه اليمين؟ قال الإمام عليه السلام: إنّ الله تعالى حيّ كريم يستحي من

عـبده إذا أثـنى عليه أن يعاجله بالعقوبة لمدحه لـه، ولكن قل يا أيها الـرجل: أبـرأُ إلى الله مـن حولـه وقوته، وألجأ إلى حولي وقوتي، إني لصادق برٌّ فيما أقول...)).

فـلما حلـف هـذا الساعي الكاذب بهذا اليمين خر ميتاً قبل أن يتم كلامهُ[1].

أجـل، مـن المحـال الخـروج عـن دائـرة حـول الله وقوتـه وولايته وقيموميـته والاستمرار في الوجود؛ إذ فلا يمكن لك ـ أيها العاصي ـ إلا الإقـرار بالقيمومـية الإلهـية، وبـأن وجـودك رهين لطف الله، فإذا أقـررت بذلـك فأنـت ملـزم بـرعاية حرمـته وباجتناب التمرد عليه، وبطاعـة أوامـره والعمـل بمـا دعـاك إليه والورع عما نهاك عنه؛ وإلا فعلـيك صـمّ سمعـك عـن نداء فطرتك السليمة وسحقها تحت أقدام الشهوات والأهواء الشيطانية للنفس الأمارة بالسوء؛ وبالتالي الخروج من مقام الكرامة الإنسانية الفطرية، ولا أحسبك ترضى لنفسك بذلك.

استشعار حضور الله واطلاعه يُثمر الورع عن معصيته

الأمر الثالث الذي طلب الإمام الحسين بن علي عليه السلام من المبتلي بالمعصـية الأسـير بشباك الذنوب؛ القيام به قبل ارتكاب المعصية هو

---

(١) مهج الدعوات للسيد الرضي علي بن طاووس، ص٢٠٠.

العثور على مكان لا يراه الله فيه ثم يرتكب ما شاء من الذنوب، وفي ذلك إشارة إلى أمرٍ فطري وبديهي آخر ينبه الإمام عليه السلام العاصي عليه، وهو أن الإنسان يرى ـ بفطرته ـ أن من الواجب عليه رعاية آداب حضور من يحضر عنده، واجتناب أضدادها خاصة ما لا يرضاه الشخص الحاضر؛ دون أن يؤثر في ذلك مقام الشخص الحاضر وطبيعة كمالاته، بل يكفي مجرد حضوره في دفع الإنسان إلى الانتباه لحاله واجتناب أي عمل لا يناسب حضورَهُ، أجل تؤثر أمور من قبيل مقام الحاضر وكمالاته في شدة وقوة هذا الحكم الفطري وسيأتي توضيح ذلك لاحقاً.

إذن؛ فلا مناص لك ـ أنت القائل: لا أقدر على ترك المعاصي ـ إما من أن لا ترى الله محيطاً بكل شيءٍ حاضراً بكل مكان وتقول: لن يراني الله في المكان الفلاني، فيمكنك حينئذٍ الذهاب إليه ومعصية الله فيه؛ وإما أن تسحق حكم فطرتك وتنتهك حرمة حضور الله ـ عز وجل وأنت تعترفُ بأنه حاضر في كل مكان مطلع على كل شيء؛ فترتكب في حضوره ما لا يرضاه.

ولا ريب في أن لكلا هذين الخيارين عواقب خطيرة، فالأول يستلزم تحديدك لله المطلق عز وجل ولعلمه غير المحدود، وبذلك تسلب نفسك الإيمان بالسعة العلمية والوجودية الإطلاقية للحق جل

وعـلا، وتعتقد بشيءٍ ينافي عقيدة جميع الإلهيين من المسلمين وغيرهـم. أما الأمر الثاني فهو يستلزم الابتعاد عن فطرتك السليمة والتنزل من مقام الإنسانية الكريم.

فافـتح ـ يـا عزيـزي ـ سمعـك وبصـرك لتعرف طبيعة القيمة التي تدفعهـا مـن أجـل ارتكـاب الذنب التي ترغب فيه، ولتعرف أي ثمنٍ يجب أن تدفعه لشراء لذات الدنيا الفانية. لا تنظر إلى ما تحصل عليه، بـل اِنظـر إلى الـذي تخسـره بارتكـاب المعصية. يقول الإمام الصادق عليه السلام لإسحاق بن عمار:

((يـا إسـحاق! خـف الله كأنك تراه، وإن كنت لا تراه فإنه يراك، فإن كنت ترى أنه لا يراك فقد كفرت

وإن كنـت تعـلم أنه يراك ثم برزت لـه بالمعصية فقد جعلته من أهون الناظرين عليك))[١].

---

(١) أصول الكافي لثقة الإسلام الكليني، ج٢، ص٥٥.

الفصل الثالث

العوامل المؤكدة لوجوب رعاية حرمة الحضور الإلهي

تقدم القول بأن احترام حضور الحاضر أمر واجب يقتضيه أصل حضور الحاضر ـ أيا كان ـ دون أن يؤثر على أصل هذا الحكم عامل آخر غير أصل حضور الحاضر، أما الآن فنتحدث عن تعزز هذا الحكم إذا كان الحاضر شخصاً خاصاً يكون له مثلاً مقام رفيع أو صفة كمالية معينة، فالفطرة تحكم هنا بأن احترام حضوره يكون أشد لزوماً ووجوباً، فنشير هنا إلى بعض النماذج لتوضيح هذه الحقيقة:

أ: حكم الفطرة بوجوب احترام الناقص للكامل

من النماذج التي يشتد فيها لزوم احترام حضور الحاضر ويتعزز فيها حكم الفطرة بقبح هتك حرمة حضوره؛ هو إذا كان الحاضر شخصاً كاملاً، بمعنى أن حضور الكامل عند الناقص يجعل لزوم احترام حضوره أوجب على الناقص وهتك حرمتهُ أقبح، فمثلاً إذا كنت عالماً في أحد فنون المعرفة وحضرت في مجلس عالم آخر هو أعلم منك في المجال نفسه بل هو الأعلم من الجميع في هذا الفن المعرفي،

فهل كنت ستسمح لنفسك بالقيام بعمل أو التفوه بكلام في محضره يؤدي إلى هتك حرمته؟ من الطبيعي أن تلزم نفسك باحترام حضور هذا العالم وباجتناب هتك حرمته؛ فالفطرة السليمة تقول لك بوضوح: أيها الناقص عليك بالورع عن هتك حرمة الكامل فواجبك أن تحترم حضوره.

وانطلاقاً من الحقيقة المتقدمة ينبغي عرض السؤال التالي على من يقول: لا أستطيع ترك المعصية؛ وهو: هل تعتقد بأن الله كامل أم لا تعتقد بذلك؟ فإن قال بأنه ليس بكامل فقد تفوه بزخرف من القول اتفق جميع الموحدين على بطلانه، وإذا قال بأنه ـ سبحانه ـ كامل، فينبغي حينئذٍ توجيه السؤال التالي إليه وهو؛ هل تؤمن أن الله سبحانه ـ الذي تقر بأنه كامل ـ مطلع على جميع أحوالك وأفعالك وأقوالك، حاضر عندك ناظر إليك في جميع هذه الأحوال، أم أنك لا تعتقد بذلك؟ فإن قال: لا اعتقد بذلك، فهذا قول باطل يرفضه جميع الإلهيين؛ أما إذا قال إنه يعتقد بذلك، فينبغي حينئذٍ توجيه السؤال التالي إليه: هل ترى نفسك ناقصاً في مقابل الرب الكامل؟ فإن أجاب قائلا: لا أرى ذلك، بل أنا كامل مثله! فهذا القول باطل أيضاً تنقضه بديهات العقول، أما إذا أجاب بالإيجاب، فينبغي أن يُقال له: يا أيها المقر بنقصك وبكمال ربك؛ ويا من تراه سبحانه ناظراً إليك

مطلعاً عليك حاضراً عندك في جميع أحوالك؛ ويا من ترى نفسك دوماً في محضره؛ ويا من ترى ـ بحكم فطرتك ـ وجوب احترام حضور الكامل على الناقص؛ لماذا لا تحفظ آداب حضور الكامل ولا تتورع عن ارتكاب ما لا يرضاه في محضره؟ لماذا تتمرد بعملك على فطرتك وتنقض حكمها؟

ب: حكم الفطرة بوجوب احترام الجاهل للعالم

من الموارد الأخرى التي يتأكد فيها لزوم حفظ آداب الحضور هو محضر العالم، فاحترام حضور العالم أشد لزوماً على الجاهل وهتك حرمة حضوره أشد قبحاً، وإذا حضر عالم وجاهل في مجلس واحد وجب على الجاهل اجتناب ما لا يرضاه العالم وحفظ حرمته.

وبملاحظة هذه الحقيقة، ينبغي توجيه السؤال التالي للمتجرأ على المعاصي: هل إنك تنتهك حرمة حضور الله عز وجل لأنك لا تعتقد بأنه عالم؟ أم أنك لا تراه حاضراً مطلعاً أصلاً فتقوم بما تهواه دون تفكير بعواقب الأمور؟ أم أنك لا ترى وجوب رعاية آداب حضور العالم المطلع على جميع أحوالك ولذلك لا تتورع عن ارتكاب أي معصية له؟

جميع هذه الأمور الثلاثة تستلزم محاذير خطيرة، فالأول والثاني يستلزمان إنكار حقائق توحيدية يجمع عليها جميع الموحدين، أما الأمر الثالث فهو ـ كما تقدم توضيح ذلك ـ محاربة للفطرة.

ج: حكم الفطرة بوجوب احترام المتعلم للمعلم

من الموارد التي تحكم الفطرة بتأكد لزوم احترام حضور الحاضر فيها هو محضر المعلم والأستاذ، فرعاية محضره أشد لزوماً على المتعلم وهتك حرمته أشد قبحاً، والمتعلم ـ وبحكم فطرته ـ يلتزم بالخضوع أمام معلمه ولا يجيز لنفسه أبداً ارتكاب ما لا يرضاه في محضره. ولقد كان سماحة الأستاذ آية الله الشيخ حسن حسن زادة الآملي ـ حفظه الله تعالى ـ يكرر القول مراراً:

((كنت أهتم كثيراً بحفظ حرمة أساتذتي، فلا أجلس متكئاً على الحائط ولا متربعاً في حضورهم، واجتنب تكرار العبارات عندما أعرض أسئلتي عليهم، ولا أعترض عليهم، وكل ذلك لكي لا أزعجهم أو لكي لا اسبب آذاهم مني)).

وقال ـ حفظه الله ـ مرة:

((كنت يوماً جالساً في محضر سماحة الأستاذ الإلهي القمشئي ـ رضوان الله تعالى عليه ـ وكان يجلس متربعاً وقد خرجت قدمه اليمنى من تحت عباءتِهِ، وكنت جالساً إلى جانبه فانحنيتُ وقبلت باطن قدمِهِ، فقال: لماذا فعلت هذا الفعل؟ أجبت: لأنني لست أهلاً لكي اقبل يدك!

ولذلك أقبل قدمك وأرى في ذلك فخراً لي جديراً بأن أباهي الآخرين به))!

والهدف من نقل هذه الحادثة هو الإشارة إلى أي مدى ينبغي للمتعلم أن يكون خاضعاً متواضعاً في حضوره معلمه ومحترماً لحرمته فيه مجتنباً لارتكاب الأعمال القبيحة في محضره.

واستناداً لما تقدم، نقول: يا من تقول: إنني مبتلىً بالمعاصي ولا أستطيع تركها، لا بد من أن تختار أحد هذه الأمور: إما أن لا ترى الله معلماً لك؛ وإما أن لا ترى نفسك في محضره ولا تراه مطلعاً عليك وعلى أعمالك ناظراً إليك في جميع أحوالك؛ وإما أن لا ترى وجوب حفظ حرمة الحضور في محضر أستاذك ومعلمك. فبأي من هذه الأمور ترضى؟ هل يمكنك إنكار أن الله معلم لك؟ الجواب هو بالنفي طبعاً، لأنك ترى نفسك مسلماً تؤمن بالقرآن الكريم وتقرأُ فيه قولهُ تعالى:

﴿**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾[1].

وهذه الآيات الكريمة صريحة في وصف الله تعالى بأنه ((معلم الإنسان))، ولذلك لا يمكنك بحال إنكار اتصافه عز وجل بذلك، وواضح أنك إذا جلست على مائدةٍ علمية لأي شخص إنما تكون قد

---

(١) العلق: ١ ـ ٥.

جلست في الواقع على مائدة الله كما هو حالك إذا جلست على مائدة طعام لأي شخص فإنما تأكل من رزق الله، وذلك بحكم: ﴿إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ (١).

إذن، لا يمكنك الالتزام بالأمر الأول أي إنكار أن الله معلمك؛ كما لا يمكنك ـ استناداً إلى ما تقدم توضيحه ـ الالتزام بالأمر الثاني أي إنكار كونك في محضر الله تعالى.

أما بالنسبة للأمر الثالث فهل يمكنك أن تدعي أن فطرتك لا ترى لزوم احترام المعلم ووجوب رعاية آداب حضوره؟ الجواب هو بالنفي ولا شك، وبناءً على هذا نخاطبك بالقول: ما دمت ترى أن الله هو معلمك وتعتقد بأنك في محضره وأنه مطلع عليك ناظر إليك في جميع أحوالك، وترى ـ بحكم فطرتك ـ وجوب حفظ حرمة حضور المعلم؛ فلا بد لك من أن تكون دائماً وفي جميع الأحوال مراقباً لأعمالك حذراً متورعاً عن ارتكاب أي عمل يؤدي إلى غضب الله وسخطه عليك.

د: حكم الفطرة بوجوب احترام الضعيف للمقتدر

ومن الموارد الأخرى التي تحظى بتأكد لزوم احترام محضر الحاضر فيها وقبح هتك حرمته، هو حضور الضعيف في حضرة المقتدر، وهذا

---

(١) الذاريات: ٥٨.

الحكم جارٍ حتى في عالم الحيوانات المحرومة من منزل الإنسانية فضلاً عن عالم الإنسان نفسه.

ولذلك، ينبغي توجيه السؤال التالي لمرتكب المعصية؛ وهو: هل أنك لا تؤمن بأن الله مقتدر، ولذلك تتجرأ على عصيانه في حضرته؟ أم أنك لا تراه حاضراً عندك مطلعاً عليك؟ أم أنك لا ترى لزوم حفظ حرمة المقتدر في حضرته؟

لا شك بأنك لا تستطيع ـ وبمقتضى إيمانك ـ أن تنكر اقتدار الله عز وجل وحضوره، كما لا يمكنك ـ بحكم فطرتك ـ إنكار لزوم حفظ حرمة المقتدر في حضرته. إذن، فكيف ترتكب ـ عن وعي ـ الذنب وتنتهك حرمة حضور المقتدر؟ إما أن يكون ذلك بسبب تخليك عن إيمانك أو عن إنسانيتك، ولا يمكنك الالتزام بأي من هذين الخيارين بسبب وجود محاذير في كل منهما.

إذن عليك بالحذر واليقظة يا عزيزي؛ والتزم بحفظ حرمة حضورك في محضر الله سواء لأنه محضر الكامل أو العالم أو المعلم أو المقتدر، وجميعها مصاديق تحكم فطرتك بلزوم حفظ حرمة الحضور فيها، حذار من هتك هذه الحرمة بذرائع واهية، فلا تسحق ولا تدمر فطرتك العارفة بالله ووجدانك الواعي تحت أقدام الأهواء والشهوات النفسانية والوساوس الشيطانية.

واعـلم ـ يا عزيزي ـ أيضاً أنك إذا تجاهلت هذه الوصايا، فإنك مـدان وخجـل في محكمـة وجدانك وفطرتك، ولا يقبل منك أي عذر فضـلاً عن أنك ستُدان يوم القيامة في محكمة العدل الإلهي ولن يكون لك أي عذر.

تحذير قرآني من هتك حرمة الحضور الإلهي

مـن المنـاسب هنـا أن نتدبر في قـولـه تعالى في سورة فصلت: ﴿**اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾[1]، ففي هذه الآية الكريمة يأمـر الله تـبارك وتعـالى الذيـن يخاطبهم بفعل ما أرادوا، ولا يخفى أن هذا الأمر ليس حقيقياً، بل هو ـ ولا شك ـ أمر تهديدي. وواضح أن كـل تهديـد يستند إلى شيءٍ هو بمثابة دعامة لـه يؤدي انتباه المخاطب إلـيها إلى أن يـأخذ حـذره ويرتدع عن الأعمال التي لا يرضاها الذي هـدده، فمـثلاً تهدد الأم ولدها المؤذي قائلة له: افعل ما شئت ولكن اعـلم أنـني سـأخبر والدك عند عودته إلى المنزل بكل ما تفعله. فمثل هـذا الأمـر تهديدي كما هو واضح، فهي تأمره بفعل ما يشاء ولكنها تحـذره في الوقـت نفسه من إخبار والده بذلك وهذا ما يخشاه ويدفعه

---

(١) فصلت: ٤٠.

بالتالي إلى الارتداع عن الأعمال المؤذية؛ وبذلك يكون أمر الأمر هذا سبباً لردع الطفل وتحركه طبقاً لما تريده منه والدته.

وبعد اتضاح هذه الحقيقة، لنتدبر معاً في الآية الكريمة المتقدمة لكي نعرف بأي شيءٍ يهدد الله تبارك وتعالى المخاطبين بها، فهل هو يهددهم محذراً من أشكال العذاب الأخروي أو من العقوبات الدنيوية؟ أي ما هي الدعامة التي يستند إليها هذا التهديد بحيث لو انتبه الإنسان إليها لكان عليه أن يخشى ويرتدع عن الأعمال القبيحة؟

نقول في الجواب: ذكر الله تبارك وتعالى قضية واحدة فقط كدعامة لتهديده ينبغي للمخاطب إذا انتبه إليها أن يلتزم الحذر ويرتدع عن القبائح، وهي القضية المشار إليها في قوله تعالى: ﴿**إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾، فهو عز من قائل لم يقل: اعملوا ما شئتم ولكن اعلموا أن عذاباً شديداً أبدياً في انتظاركم، بل قال: ﴿**إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾، أي: اعملوا ـ أيها الناس ـ ما شئتم ولكن اعلموا أن الله ـ وجميع الخلق في حضرته ـ مطلع على أحوالكم جميعاً ويرى جميع أعمالكم، فلو كنتم محافظين على إنسانيتكم، فإن مجرد علمكم بأنكم في حضرة الله يكفي في إثارة الخشية في قلوبكم وردعكم بالتالي عن ارتكاب الأعمال القبيحة في حضرته، يقول تعالى في سورة التوبة: ﴿**وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ**

وَالْمُؤْمِنُونَ﴾[١]، وهذه الآية الكريمة أقوى دلالة على المطلوب من آية سورة فصلت لأنها تصرح بأن رسول الله ﷺ والخواص من عباده شهداء أيضاً على أعمال الناس يرونها أيضاً إضافة إلى الله تبارك وتعالى، أي أن الإنسان ليس في حضرة الله تبارك وتعالى دائماً فقط بل هو أيضاً في حضور رسول الله ﷺ وخاصة عباد الله عز وجل، ولذلك فإن فحوى هذه الآية الكريمة هو: يا من تؤمنون بالله ورسوله، اعلموا أنّكم في محضر ومرأىً من الله ورسوله وخاصة المؤمنين به وعباده المخلصين، فعليكم بمراقبة أعمالكم والانتباه إلى ما تقومون به لكي لا ترتكبوا عملاً يخزيكم ويؤدي إلى هتك حرمتهم.

نموذج لإطلاع أولياء الله على أعمال الناس

نقل سماحة الأستاذ الشيخ حسن زادة الآملي ـ حفظه الله ـ يوماً الحادثة التالية؛ قال: ((كانت لنا قضايا مع سماحة الأستاذ السيد محمد حسن القاضي الطباطبائي ـ شقيق المرحوم العلامة الطباطبائي صاحب التفسير القيم ((الميزان)) ـ، وكان يخبرني أحياناً بأحوالي الباطنية، كان ارتباطه بعالم الأرواح قوياً جداً. وقد قال لي: كلما

---

(١) التوبة: ١٠٥.

أتعرض لمشكلة أعجز عن حلها، أتشرّف بالمحضر المبارك للمرحوم السيد علي القاضي الطباطبائي ـ وكانت قد مرت يوم ذاك عدة سنين على وفاته ورحيله عن هذه الدنيا إلى ديار البقاء ـ وأعرض عليه مشكلتي وهو يتفضل عليّ بالجواب.

وعندها قلت لسماحة السيد محمد حسن ـ رضوان الله عليه ـ: يا سيدي، إذا تشرفت بالحضور في محضر السيد علي القاضي ـ رحمة الله عليه ـ، فأبلغه سلامي، وقل له: إن فلاناً يسألكم الدعاء. وقد وافق المرحوم السيد محمد حسن القاضي ووعدني بأن يعرض طلبي على المرحوم السيد علي القاضي إذا تشرف بزيارته.

ثم مضت مدة على ذلك وانتقل السيد محمد حسن إلى تبريز، كما سافرت أنا من قم إلى مدينتنا آمل مع حلول العطلة الصيفية وتوقف دروسي فيها، وقد رتبت لنفسي برنامجاً عملياً في آمل اشتمل على التدريس والبحث العلمي والخطابة وغير ذلك، وكانت هذه النشاطات في المسجد والتدريس والبحث والخطابة مكثفة للغاية وإلى درجةٍ كنتُ أشعر معها بحاجة شديدة للنوم والاستراحة بعد أن أتناول طعام الظهيرة كلما عدت إلى المنزل إذ كنت أعود متعباً للغاية خاصة وأن الحر كان شديداً في ذلك الصيف.

وفي أحد تلك الأيام رجعت إلى المنزل بعد انتهاء عملي اليومي،

وتهيأت للنوم بعد تناول طعام الظهيرة، ولكن سرعان ما ارتفعت أصوات ضجيج الأطفال وبصورة منعتني النوم الأمر الذي افقدني السيطرة على أعصابي خاصةً وأنني كنت متعباً للغاية، وبلغ انفعالي درجة قمت معها ولاحقت الأطفال، ففر كبيرهم من بين يدي، وحاول الأوسط الفرار لكنني حاصرته عند النافذة وضربته على ظهره، ثم لاحقت أصغرهم إلى ساحة البيت وحاصرته في نهاية المطاف في زاوية منها بحيث لم يبق أمامه طريقاً للفرار، فلما وجد أن جميع طرق الفرار مسدودة بوجهه ألقى بنفسه فجأة عليّ واستعاذ بي من شري!!

أثر علمه فيَّ بعمق بل قد اصطادني الصبي بعمله ووقعت في شباكه، انتبهت فجأة إلى حالي ورجعت إلى نفسي فشعرت بخجل شديد من نفسي ومن عملي، وحزنت بعمق وضاق صدري وسيطر علي غم شديد مع شعور عميق بالخجل وأنا أرجع للغرفة للنوم لكنني لم استطع أن أنام رغم كثرة محاولاتي، فاضطررت للنهوض وقلت في نفسي: لأذهب إلى السوق واشتري شيئاً للأطفال أدخل به السرور إلى قلوبهم وأرضيهم به. وبالفعل نفذت هذا القرار، ذهبت إلى السوق واشتريت لكل منهم شيئاً وتلطفت بهم حتى فرحوا جميعاً؛ أما أنا فلم يتغير حالي، فقد بقي الهم والغم يسيطران على

قلبي بقوة أفقدتني القرار.

ولما رأيت عجزي عن العودة إلى حالتي العادية قررت مغادرة آمل والسفر ولو لفترةٍ وجيزة إلى مكان ما، لذلك قلت لوالدة الأطفال: قررت السفر إلى طهران، لا تقلقوا إذا لم أرجع الليلة أو غداً، وبالفعل سافرت إلى طهران عصر ذلك اليوم وصلتها مع غروب الشمس، قضيت تلك الليلة في أحد مدارسها الدينية وفي صباح اليوم التالي ذهبت إلى موقف حافلات النقل التي تنقل المسافرين إلى تبريز فوجدت إحدى الحافلات مستعدة للتحرك، فاشتريت البطاقة وصعدت الحافلة وقضيت ذلك اليوم وليلته في الطريق، وقد وصلنا تبريز مع أذان الفجر؛ أخذت بالبحث عن إحدى المدارس الدينية لكي أصلي بها صلاة الفجر، هدوني إلى ((المدرسة الطالبية))، فذهبت إليها وصليت الفجر فيها وصبرت حتى طلعت الشمس ثم سألت طلبة المدرسة عن عنوان منزل سماحة الأستاذ السيد محمد حسن الإلهي الطباطبائي، أعطوني العنوان فذهبت إليه، طرقت الباب، فجاءت امرأة قلت لها من خلف الباب: أبحث عن منزل سماحة السيد محمد حسن الطباطبائي، أجابت، هذا هو منزله، قلت: اخبروا سماحته أن فلاناً يرغب في زيارتكم. ذهبت السيدة وبعد لحظات جاء السيد بنفسه وبعد السلام والسؤال عن الأحوال دعاني للدخول فدخلت

وجلست فبادرني بالقول: كنت أفكر في سبيل للعثور عليك من أجل إخبارك بأمرٍ، فجئتم بأنفسكم ولله الحمد وكفيتموني مشقة البحث عنكم! قلت: خيراً إن شاء الله تفضلوا.

قال السيد: كنت الليلة الماضية عند المرحوم القاضي، ولأنكم كنتم قد طلبتم أن أنقل له ـ إذا تشرفت بلقائِهِ ـ سلامكم وأقول له: إن فلاناً يسألكم الدعاء؛ لذلك قلت لسماحته: إن فلاناً يبلغكم السلام ويسألكم الدعاء. لكني وجدت المرحوم القاضي يعتبُ عليكم!

سألت سماحة الأستاذ محمد حسن الطباطبائي: لماذا؟ فأجاب: قال السيد القاضي: أنقل للشيخ حسن زاده قولي له: كيف يرغب في سلوك هذا الطريق وهو يعامل أولاده بهذه الصورة.

قلت للسيد ـ وقد هيمن علي انكسار عميق وخجل شديد ـ: يا سيدي، أقسم بالله أنني لم أعتد على منازعة الأولاد، ولا أدري لماذا جرى هذه المرة ما جرى، ولكن ستكون هذه الحادثة هي الأخيرة مثلما كانت الأولى ولن تتكرر أبداً.

كنت قد قررت أن أقضي تلك الليلة في منزل السيد الأستاذ، لكنني لم أطق ذلك لشدة الخجل الذي سيطر عليّ، لذلك ودعته وقضيتُ تلك الليلة في أحد الفنادق ثم غادرت تبريز صباح اليوم التالي)).

إن الغرض من نقل هذه الحكاية هو أن نتنبه ـ أنا وأنت والآخرون ـ إلى أننا قد تقوقعنا في آفاقنا المحدودة ولذلك فنحن نرتكب كل عمل تدعونا له الأهواء النفسية والإغراءات الشيطانية؛ غافلين عن حقيقة أن أرواح الأولياء والمؤمنين وسكنة عالم الملكوت ـ فضلاً عن الله ورسوله ﷺ، تطلع على أحوالنا وتنظر إلينا وإلى جميع أعمالنا رغم أننا محجوبون عن ذلك، ولكن ينبغي الانتباه إلى حقيقة أن عدم رؤيتنا لهم لا يجيز لنا أن نفعل ما نشاء بحرية؛ كلا، إن المعيار في وجوب حفظ حرمتهم ورعاية آداب حضورهم هو رؤيتهم لنا وليس رؤيتنا نحن لهم؛ وذلك يكفي في ايجاب الورع عن هتك حرمة حضورهم علمنا بأننا في حضرتهم وأنهم يروننا.

لنضرب مثالاً لتوضيح الحقيقة المتقدمة؛ وهو: إذا حضر جماعة من فاقدي البصر عند السلطان، فهل بإمكانهم أن يجلسوا حيثما شاءوا أو يتكلموا بما شاءوا لمجرد أنهم لا يرون السلطان؟ أم أن مجرد علمهم بأنهم في حضرة السلطان وأنه يراهم؛ يكفي في دفعهم للجلوس بتخضع وتأدب ورعاية آداب الحضور في حضرته بأفضل صورة ممكنة مجتنبين القيام بأي عمل لا يناسب المقام؟ الجواب على هذا السؤال واضح.

إذن، اعلم ـ أنت يا أخي المؤمن بالله ورسوله والمقر برفعة مقامات أولياء الله ـ أن ارتكاب الذنب إنما يقع في حضرة الله ورسوله والمؤمنين والملائكة؛ أفلا تخجل من ذلك؟ ألا تستحي من ارتكاب القبائح بمرأىً منهم ومسمع؟

لقد رأيت أحد أكابر أساتذة الأخلاق نائماً ليلةً وهو في حال السجود، ثم عرفت فيما بعد أن هذه هي سنته كل ليلة لأنه يستحي من أن يمدّ رجليه والاضطجاع لكونه في حضرة الله؛ فكيف تتجرأ أنت على ارتكاب المعاصي بمحضر من الله وأوليائِهِ دون حياء؟ فما أعظم الفرق بين هذا السلوك وبين ذاك؟! ما دمت قد ابتعدت إلى هذه الدرجة عن أولياء الله والمؤمنين المخلصين في هذه الدنيا؛ فلا تظن أن محشرك في الدار الآخرة سيكون معهم ولا تتوهم أنك ستحظى هناك بما سيحظون به من النعم العظيمة.

وخلاصة الكلام هي أنه على من يريد أن يرتكب المعاصي البحث عن مكان لا يراه الله فيه، ولكن لا يمكن بحال تصور وجود مثل هذا المكان مع ثبوت الاعتقاد بأن الله مطلق في وجوده مطلق في علمه؛ بل ولا يمكن أن يطرأ مثل هذا التصور على ذهن المسلم المؤمن بالقرآن الكريم لأن الله يقول في كتابه العزيز: ﴿**وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ**

شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾[1].

روى المرحوم الشيخ أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي صاحب التفسير القيم المسمى ((مجمع البيان)) حديثاً عن الإمام الصادق عليه السلام في ذيل هذه الآية الكريمة أنه قال: ((كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا قرأ هذه الآية بكى بكاءً شديداً))[2].

فيا عزيزي! إن الحقيقة التي تجعل رسول الله صلى الله عليه وآله يبكي بكاءً شديداً؛ ينبغي أن تجعلنا ـ وكحدٍ أدنى ـ نتفكر في حالنا بعمق ونتحرر من أسر اللامبالاة والتهاون والغفلة؛ وينبغي أن تدفعنا ـ كحد أدنى ـ إلى أن نقضي شطراً من حياتنا ونحن نستعشر حضور الله؛ ومما لا شك فيه هو أننا لو حالفنا توفيق الاستشعار لواقع أننا في حضرة الله وبالتالي أن علينا أن نلتزم برعاية حرمة حضوره؛ فإننا سنتورع عن ارتكاب الكثير من الذنوب ونحظى بمرتبة ـ ولو دانية ـ من مراتب العصمة.

---

(١) يونس: ٦١.

(٢) مجمع البيان، ج٥، ص١١٩.

الفصل الرابع

آثار ذكر الموت في التورع عن المعصية

الأمر الرابع الذي طلب الإمام الحسين عليه السلام من ذاك الرجل المبتلى بالمعاصي أن يبادر إليه قبل ارتكاب المعصية هو أن يتخذ قراراً حازماً بالامتناع عن تسليم روحه لملك الموت إذا جاء يقبضها، وهنا أيضاً يشير سيد الشهداء عليه السلام إلى قضية مقبولة عند جميع البشر وهي: أن الإنسان بفطرته يكره اللذات المؤقتة التي سرعان ما تزول خاصة التي تستتبع تبعات ثقيلة. فمثلاً إذا أدخلوكم حديقة غناء فيها إمكانات التمتع بجميع أنواع اللذات المادية من الفواكه الطيبة والمناظر الجلابة والأطعمة اللذيذة وآلاف من أفضل النعم الأخرى؛ ثم قالوا لكم: أنتم أحرار في التمتع بجميع هذه اللذات لمدة عشر سنين ولكن بعد انقضاء هذه المدة سنخرجكم كرها من هذا البستان ونقطع عضواً من أعضاء أبدانكم في مقابل كل لذة تمتعتم بها! فهل أنتم مستعدون للانغماس في التمتع بهذه اللذات دون الاهتمام بأنكم ستضطرون إلى مغادرة البستان كرهاً يوماً ما وستجبرون على

دفع ثمن جسيم لكل لذة تمتعتم بها؟

مما لا شك فيه أنك سترفض هذا العرض إذا كنت حكيماً عاقلاً، أجل من الممكن أن ينهمك المجنون في التمتع بتلك اللذات دون الاهتمام بما قيل له لأنه لا تكليف عليه!

فاعلم ـ يا عزيزي ـ إن حال الدنيا ولذاتها كحال ما تقدم في المثال المذكور، فلقد قرأت في وصفها أنه: ((في حلالها حساب وفي حرامها عقاب))[١]؛ وعليك حتماً مقضياً أن تترك كل شيءٍ وكل شخص يوماً عندما تدق أجراس الموت، فتغادر هذه الدنيا وتبقى وحيداً مع أعمالك، ففكر جيداً ولاحظ حالك وهل يمكنك ـ والحال هذه وبملاحظة عواقب الأعمال الثقيلة ـ أن تقوم بما تهوى فتأكل وتشرب ما تشاء وترتكب كل ما تهواه من قول أو فعل؟

أجل؛ إذا لم يكن ثمة موت وكنت خالداً في هذه الحياة الدنيا؛ فلعل من المناسب أن تجعل أعمالك تدور حول محور الشهوات والأهواء النفسية دون أن تقيد نفسك بأي قيد؛ لكن واقع الحال ليس كذلك، فأنت راحل عن هذه الدنيا دون اختيار منك مثلما جئت إليها دون اختيار منك؛ وبعبارة أخرى مثلما أنهم جاءوا بك إلى هذه

---

(١) بحار الأنوار، ج٤٢، ص٢٧٦.

الدنيا دون استئذان ورضا منك سيخرجونك منها دون اذنك ورضايتك. ولقد شبهت بعض الأحاديث الشريفة الموت بالنوم والبعث بالاستيقاظ منه، فمثلما أن النوم يغلب عليك في موعده سواء كنت راغباً فيه أم لا، كذلك الحال مع الموت فهو سيأتيك في أجله المعين دون أن تستطيع أن تدفعه عنك مثلما تعجز عن دفع النوم عنك إذا غلبك مهما كنت قوياً.

وإذا كان الحال كذلك، فهل فكرت بالموت وما بعده من شدائد؟ إذا كنت قد فكرت بذلك فلا ينبغي ـ حينئذٍ ـ أن تقضي العمر بالبطالة وتقول، أريد أن أصبح صالحاً لكنني لا أستطيع!

إذا كنت قد فكرت بالشدائد التي ستنزل بك بعد الموت، فلا ينبغي لك أن تقول بعد ذلك: ماذا أفعل لكي لا أقع في المعاصي؟! فلو كان هذا التفكير حقيقياً عميقاً لردعك عن كل الموبقات والقبائح والمعاصي؛ لأنه: ((كفى بالموت واعظاً))[1] .

أما إذا وجدت نفسك تقترب من كل ذنب غافلاً عن مراقبة أعمالك فأعلم أنك لم تفكر بأمر الموت أساساً أو أن تفكرك فيه ليس حقيقياً؛ وما أجمل ما نظمه الشاعر ((باب طاهر عريان)) في هذا الباب

---

(١) بحار الأنوار، ج٦، ١٣٢.

حيث يقول:

بـه دنـيا دل نبـنده هـركه مـرده — كـه دنـيا سـر بسـر اندوه ودرده

بـه قـبر سـتان گـذر كن تا ببينى — كـه دنـيا بـا رفيقانـت چـه كرده

* * *

بـه قـبر سـتان گذر كردم صباحى — شـنيدم نالـه وانـدوه وآهـى

شـنيدم كلّـه اى بـا خـاك مى‌گفت — كـه ايـن دنيا نمى ارزد به كاهى[1]

---

(١) [ما ترجمته النثرية]:

الرجل حق الرجل لا يتعلق بالدنيا

فكل الدنيا هم وآلام

مُرّ على القبور لكي ترى ما فعلته الدنيا برفقائك.

فلقد مررت بمقبرةٍ في أحد الأصباح

فهناك سمعت أنيناً وحسرات وآهات

سمعت جمجمةً تخاطب التّراب

قائلة: لا تساوي هذه الدنيا قشة!!

الفصل الخامس

معرفة آثار الأعمال ودورها في اجتناب المعاصي

الأمر الخامس الذي طلب سيد الشهداء عليه السلام من الشخص العاصي أن يلتزم به قبل ارتكاب الذنب هو الامتناع عن دخول جهنم عندما ينبري الملائكة الموكلين بها لإلقائِهِ فيها.

علاقة الجنة والنار بأعمال الإنسان

ومن الضروري أن نمهد لشرح وتوضيح القسم الأخير من كلام الإمام الحسين عليه السلام بالتعرف على طبيعة العلاقة بين الجنة والنار من جهة وأعمال الإنسان من جهة ثانية، فمعرفة هذه العلاقة مؤثرة في فهم كلام الإمام عليه السلام فنسأل أولاً: هل أن بناء وإعداد الجنة والنار وما فيهما من أنواع النعيم والعذاب هي جميعاً أمور معزولة عن الإنسان خارجة عن ذاتِهِ ونفسه ولا علاقة له بهما ولا دور له في إعدادها أصلاً؟

للجواب على هذا السؤال نقول: إن المستفاد من النصوص

الدينية ـ آيات وأحاديث شريفة ـ وكذلك ما تؤيده القواعد والبراهين العقلية، هو أن الجنة والنار ليستا سوى ظهور أعمال الإنسان؛ بمعنى أن أشكال العذاب والآلام في النار ليست سوى عودة نفس الأعمال القبيحة للإنسان إليه، وكذلك الحال مع نعيم الجنة، فهو أيضاً رجوع لأعماله الصالحة إليه، أجل ثمة بعض التسامح في هذه التعبيرات ستتضح أبعاده في البحوث اللاحقة، يقول عز من قائل في سورة ((يس)) عن يوم القيامة:

﴿فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلا تُجْزَوْنَ إِلا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[١].

والآية تصرح بأن جزاء كل عمل يقوم به الإنسان هو العمل نفسه، لا أن الجزاء شيء والعمل شيء آخر بل هما شيء واحد في الحقيقة يكون عملاً باعتبار معين وجزاء باعتبار آخر. كما يقول سبحانه وتعالى في سورة آل عمران:

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوَءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾[٢].

ويقول عز وجل في سورة الزلزال:

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ

---

(١) يس: ٥٤.

(٢) آل عمران: ٣٠.

ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[(١)].

ويقول تبارك وتعالى في سورة الكهف:

﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[(٢)].

والمستفاد من جميع هذه الآيات هو أننا سنشاهد أعمالنا نفسها يوم القيامة، فإذا كانت صالحة فهي علة لتمتعنا بالنعيم الأخروي، وإن كانت قبيحة فهي علة تعرضنا للعذاب الأخروي، وغاية الأمر هي أن لأعمال الإنسان صورتين: ملكية فانية سرعان ما تزول وملكوتية باقية لا تزول، ونحن نعرف صورتها الملكية ونجهل صورتها الملكوتية في هذه الحياة الدنيا أما في الحياة الأخرى فلا نجد أثراً للصورة الملكية للأعمال وما نراه هو فقط صورتها الملكوتية، فإن كانت جميلة فهي نعيمنا وإن كانت قبيحة فهي جحيمنا.

وبعد تعرفنا على دلالات الآيات الكريمة على الحقيقة المتقدمة من الضروري أن نلقي نظرة على الأحاديث الشريفة للتعرف على رؤيتها بهذا الشأن. روى الشيخ الصدوق في كتاب معاني الأخبار عن قيس بن عاصم؛ قال:

((وفدت مع جماعة من بني تميم على النبي ﷺ فدخلت وعنده

---

(١) الزلزلة: ٦ ـ ٨.

(٢) الكهف: ٤٩.

الصلصال بن الدلهمش، فقلت: يا نبي الله عظنا موعظة ننتفع بها، فإنا قوم نعير[١] في البرية، فقال رسول الله ﷺ: ((يا قيس إن مع العز ذلاً وإن مع الحياة موتاً وإن مع الدنيا آخرة، وإن لكل شيءٍ حسيباً وعلى كل شيءٍ رقيباً، وإن لكل حسنة ثواباً ولكل سيئة عقاباً ولكل أجلٍ كتاباً. وإنه لابد لك يا قيس من قرين يُدفن معك وهو حي وتدفن معه وأنت ميت، فإن كان كريماً أكرمك وإن كان لئيماً أسلمك؛ ثم لا يحشر إلا معك ولا تبعث إلا معه ولا تُسأل إلا عنه، فلا تجعله إلا صالحاً، فإنه إن صلح أنست به وإن فسد لا تستوحش إلا منه وهو فعلك))[٢].

وروى الشيخ الكليني في أصول الكافي، باب ((إدخال السرور على المؤمنين)) عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

((إذا بعث الله المؤمن من قبره خرج معه مثال يقدمه أمامه كلما رأى المؤمن هولاً من أهوال يوم القيامة قال له المثال: لا تفزع ولا تحزن وأبشر بالسرور والكرامة من الله عز وجل. حتى يقف بين يدي الله عز وجل فيحاسبه حساباً يسيراً ويُأمر به إلى الجنة والمثال أمامه، فيقول له المؤمن: يرحمك الله نعم الخارج خرجت معي من قبري وما

---

(١) نعير أي نذهب ونجيء.

(٢) معاني الأخبار، الشيخ الصدوق، ص٢٣٢.

زلت تبشرني بالسرور والكرامة من الله حتى رأيت ذلك. فيقول: من أنت؟

فيقول: أنا السرور الذي كنت أدخلت على أخيك المؤمن في الدنيا، خلقني الله منه لأبشرك))(١).

وروى الفيض الكاشاني في كتاب الوافي نقلاً عن كتاب الكافي عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال: ((إن العبد إذا كان في آخر يوم من أيام الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة مُثل لـه مالهُ وولدهُ وعمله، فيلتفتُ إلى ماله فيقول:

والله إني كنت عليك حريصاً شحيحاً فما لي عندك؟، فيقول: خُذ مني كفنك!

قال: فيلتفت إلى ولده، فيقول: واللهِ إني كنتم لكم محباً وإني كنت عليكم محامياً فما لي عندكم؟ نوديك إلى حفرتك فنواريك فيها!

قال: فيلتفت إلى عمله، فيقول: والله إني كنت فيك زاهداً وإن كنت عليّ ثقيلاً فما لي عندك؟ فيقول: أنا قرينك في قبرك ويوم نشرك حتى أُعرض أنا وأنت على ربك))(٢).

---

(١) أصول الكافي، الشيخ الكليني، ج٢، ص١٥٢.

(٢) الوافي، المولى محسن الفيض الكاشاني، أبواب ما بعد الموت، الباب ١٠٦، المجلد ١٣، ص٩٢.

كما نقل المرحوم الفيض عن الكافي أيضاً أن الإمام الصادق عليه السلام قال:

((ما من موضع قبر إلا وهو ينطق في كل يوم ثلاث مرات:

أنا بيت التراب، أنا بيتُ البلى، أنا بيت الدود.

قال عليه السلام: إذا دخله عبد مؤمن قال: مرحباً وأهلاً... فيفسح له مد البصر ويُفتحُ له باب يرى مقعده من الجنة. قال: ويخرج من ذلك رجل لم تر عيناه أحسن منه. فيقول: يا عبد الله ما رأيت شيئاً قط أحسن منك! فيقول: أنا رأيك الذي كنت عليه وعملك الصالح الذي كنت تعمله...

وإذا دخل الكافر قبره، قالت له: لا مرحبا بك ولا أهلاً... ويفتح له باب إلى النار فيرى مقعده من النار. ثم إنه يخرج منه رجل أقبح من رأى قط. قال: فيقول: يا عبد الله من أنت فما رأيت شيئاً أقبح منك؟ قال: فيقول: أنا عملك السيء الذي كنت تعمله ورأيك الخبيث)).

وروي في الحديث النبوي: ((إنما هي أعمالكم رُدت إليكم)).

ويستفاد من مجموع هذه الروايات، أن أعمالنا هي علة ما نلقاه من بهجةٍ وسرور أو ـ لا سمح الله ـ ما نتعرض له من وحشة وعذاب في الحياة الأخرى، أي أن أعمالنا نفسها هي ستصير نعيماً لنا أو ـ لا سمح الله ـ جحيماً.

وقد أجاد الشاعر المولوي ﷺ تصوير هذا المعنى في الدفتر الثالث من مثنوي معنوي حيث يقول:

چون سجودی یا رکوعی مرد کشت — شد در آن عالم سجود او بهشت
چون که پرید از دهانش حمد حق — مرغ جنّت ساختش ربّ الفلق
حمد وتسبیحت نماند مرغ را — گرچه نطفه مرغ بادست وهوا
چون زدستت رُست ایثار وزکات — گشت این دست آن طرف نخل ونبات
آب صبرت جوی آب خلد شد — جوی شیر خُلد مِهرِ تست و ودّ
ذوقِ طاعت گشت جوی انگبین — مستی وشوق تو جوی خمر بین
چون زدستت زخم بر مظلوم رست — آن درختی گشت ازو زقوم رست
چون زخشم، آتش تو در دل ها زدی — مایه نار جهنم آمدی
آتشت این جا چو آدم سوز بود — آنچه از وی زاد مرد افروز بود
آتش تو قصد مردم میکند — نارکز وی زاد مرد افروز بود
آن سخن های چو مار وکژدمت — مار وکژدم گردد وگیرد دمت
اولیا را داشتی در انتظار — انتظار رستخیزت گشت یار
وعده فردا وپس فردای تو — انتظار حشرت آمد وای تو
منتظر مانی در آن روز دراز — در حساب وآفتاب جان گداز
کآسمان را منتظر میداشتی — تخم فردا ره روم می کاشتی
خشم تو تخم سعیر دوزخ است — هین بکش این دوزخت راکین فخ است(١)

---

(١) مثنوي معنوي، جلال الدين محمد المولوي الرومي، الدفتر الثالث، ص١٩٧.

[ما ترجمته النثرية]:

إذا سجد المرء هنا أو ركع؛ صار سجوده في ذلك العالم جنة له. =

= إذا انطلق من فمه هنا ثناء على الحق تعالى، جعله رب الفلق طيراً من طيور جنته.

عندما تخرج من يديك هنا عطايا الإيثار والزكاة، فإنها تزرع لك في تلك الدار نخيلاً وأشجار.

ماء صبرك هنا يصير هناك أنهاراً جارية وتصير رأفتك ومودتك أنهاراً من لبن، ويصير إقبالك هنا على الطاعة وذوقك إياها انهاراً من العسل، واعلم أن سكرك وفناءك في الحق هنا يصير هناك أنهاراً من خمر.

أما إذا شقت يدك في بدن المظلوم جرحاً، فإنها تكون قد زرعت لك هناك شجرةً من زقوم.

وإذا أجج غضبك هنا ناراً في قلوب الناس. فهو مُسعّر عليك هناك نار جهنم إذا أحرقت نارك هنا أفراداً من الإنسان، فإنها تجعلك هناك جهنمياً.

نارك التي تؤذي الناس هنا، تولد لك ناراً حارقة هناك.

وكلماتك التي تلسع الناس مثل الأفاعي والعقارب، ستحيط بك أفاعيها وعقاربها هناك.

وحبسك الأولياء هنا في أسر الانتظار يوجب أن يصاحبك الانتظار يوم القيامة.

ومماطلتك هنا يُولد طول انتظارك في موقف يوم الحشر فويل لك.

ستبقى أسير الانتظار في ذلك اليوم الطويل ويطول وقوفك للحساب تحت الشمس الحارقة.

أجل فمماطلتك هنا هو بذرة طول انتظارك غداً.

وغضبك هنا هو بذرة سعير جهنم، فأطفأ جهنم نفسك مادامت هذه المصيدة موجودة لك.

كما صور المرحوم الشاعر صغير الإصفهاني هذا المعنى بلغة الحكاية الأسطورية الطريفة فقال:

داد درويشى از ره تمهيد — سرقليان خويش را به مريد
گفت: از دوزخ اى نكو كردار — قدرى آتش بروى آن بگذار
بگرفت وببرد وباز آورد — عقد گوهر زدُرج راز آورد
گفت: در دوزخ آنچه گرديدم — دركات جحيم را ديدم
آتش هيزم وذغال نبود — اخگرى بهر انتقال نبود
هيچ كس آتشى نمى افروخت — زآتش خويش هر كسى مى‌سوخت[1]

---

[1] ديوان الشاعر صغير الإصفهاني، ص٣٨٠. [ما ترجمته النثرية]:
أعطى الدرويش لتلميذه يوماً ـ وبهدف إعداده ـ رأس النرجيلة وقال له:
أيها العبد الصالح، اذهب إلى جهنم وضع على رأس النرجيلة جمرة من جمار نارها.
ذهب التلميذ ومعه رأس النرجيلة ثم عاد بعد حين وهو يحمل جوهرة من مخزن الأسرار.
قال التلميذ: أطلت البحث في جهنم وفتشت كل أجزائها حتى دركاتها لكني لم أجد ناراً من حطب وفحم ولم يكن فيها جمرة يمكن نقلها، لم أجد فيها من يسعّر ناراً في خارجه، بل كلّ جهنمي منهم كان يحترق بالنار التي سعّرها نفسه في داخل ذاته.

العلاقة بين أعمال الإنسان وشخصيته

وبعد أن عرفت طبيعة علاقة الجنة والنار بأعمال الإنسان، ينبغي أن تعرف طبيعة علاقة هذه الأعمال بالإنسان نفسه، فننطلق من قوله تعالى في سورة هود بشأن ابن نوح: ﴿**يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ**﴾[1] ونقول: إن الإنسان هو نفس عمله، وكل إنسان يصنع ـ طوال عمره ـ نفسه بأعماله، فمن انحصرت حصيلة نشاطه اليومي في الأعمال الطالحة الخبيثة لا غير، فهو نفسه قطعة من الفساد والخبث، وبالعكس؛ فمن كانت حصيلة نشاطه اليومي الأعمال النقية والنورانية لا غير فهو بنفسه قطعة من النقاء والنورانية. وبعبارة أخرى نقول: إن أعمال الإنسان هي التي تشكل ـ بصورتها الملكوتية ـ جوهر ذاته وتبني هويته وشخصيته، أي أن الإنسان هو الذي يبني ذاته بأعماله وعقائده ومدركاته.

وبعد أن عرفت طبيعة العلاقة بين الجنة والنار بأعمال الإنسان، وكذلك طبيعة علاقة ذات الإنسان بأعماله؛ فإنك تتوصل ـ إذا أمعنت النظر في الأمر ـ إلى نتيجةٍ مفادها أن الجنة والنار لا تنفصلان أبداً عن الإنسان كما أن الإنسان نفسه لا ينفصل عنهما، بل ينبغي

---

(١) هود: ٤٦.

أن تقول إن الجنة أو النار هما في الإنسان بدلاً من القول ان الإنسان في الجنة أو النار؛ بل ـ وفوق ذلك ـ ينبغي أن تقول: إن الإنسان يعني الجنة أو النار، فإذا كان غارقاً في طاعة الله وعبوديته فهو بنفسه جنة، أما إذا كان ـ والعياذ بالله ـ غارقاً في المعاصي والذنوب فهو بنفسه جهنم.

وإذا تدبرت في الأمر المذكور بدقةٍ فينبغي أن تعرف جيداً معنى قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾[١]، أو قوله تعالى: ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾[٢].

وبعد هذه المقدمة الطويلة نسبياً نرجع إلى حديث الإمام الحسين بن علي عليه السلام وطلبه من الرجل العاصي أن يتخذ ـ قبل ارتكاب المعصية ـ قراراً بالامتناع عن دخول النار إذا أراد الملك الموكل بها إدخالها فيها، فنسأل واستناداً إلى الحقائق المتقدمة: هل يمكن للعاصي أساساً الامتناع عن دخول النار أو الفرار منها؟

الجواب واضح، لكننا نقول من أجل المزيد من التوضيح: إن فرار العاصي من جهنم يعني فراره من نفسه، وامتناعه من الدخول فيها هو بمثابة الامتناع من قبول ذاته! فإذا استطاع الفرار من نفسه ونبذ

---

(١) الواقعة: ٨٨ ـ ٨٩.

(٢) الفجر: ٢٣.

ذاته أمكنه الفرار من جهنم أو الامتناع من دخولها، فهل يمكن للإنسان الفرار من نفسه وأن لا يكون هو هو؟! الأمر محال طبعاً، إذن فمثلما لا يمكن للإنسان الهروب من ذاته ولا معنى لهذا الأمر أصلاً؛ لا يمكن للعاصي أيضاً الأمتناع عن دخول جهنم بل لا معنى لذلك أصلاً. ينقل أحد أساتذتنا ـ رحمه الله تعالى ـ الحادثة التالية، يقول:

((كنت أقف على حافة أحد شوارع طهران ـ أيام حكومة البهلوي الفاسدة ـ بانتظار حافلة نقل، فرأيت من بعد عربة تقترب منه وألسنة النيران تطلع منها! تعجبت كثيراً مما رأيت، عندما اقتربت العربة مني لم ار فيها للنار أثراً، فازداد تعجبي، أمعنت النظر في العربة فرأيت ثلاثة أشخاص جالسين في جانبها الخلفي، رجلان وامرأة متبرجة تجلس وسطهما في وضع مزرٍ للغاية، وعندها عرفت مصدر النار التي رأيتها من بعيد)).

ونقل سماحته أيضاً حادثة أخرى هي:

((كنت جالساً يوماً في مسجد الجامع في طهران استمع لدرس المرحوم الشيخ أقا جمال الآصفهاني ـ رضوان الله تعالى عليه ـ، فرأيت نوراً يخرج من فمه المبارك عندما أخذ بالحديث والوعظ)).

هاتان الحادثتان والمئآت من أمثالهما تكشف حقيقة أن الإنسان المطيع يكون في جنة بل يصبح هو نفسه جنة عندما ينشغل بالعبادة

والطاعة، لكن وجود الحجاب في هذه الدنيا يحولُ دون اتضاح هذه الحقيقة. وكذلك الحال مع العاصي فهو يكون ـ عند انشغاله بارتكاب الذنوب ـ في جهنم بل يمسي هو نفسه جهنماً فيحترق ويحرق لكنه لا يشعر بالعذاب لأنه محجوب بحجاب الطبيعة. يقول سبحانه وتعالى:

﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾[1].

فالآية تنبه إلى أن الكافرين مساكين لأنهم يستعجلون نزول العذاب غافلين عن أن جهنم محيطة بالفعل والآن بهم، والله لم يقل هنا أن جهنم ((ستحيط بالكافرين)) لكي يُقال بأن هذه الإحاطة ستتحقق في المستقبل بل قال إنها ﴿لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾، فهي محيطة بهم الآن ولذلك فلا حاجة للاستعجال ولا مورد له أصلاً؛ لأنهم هم الآن في جهنم لكنهم لا يشعرون، فإذا أزيلت حجب عالم الطبيعة وانكشفت السرائر اتضح لهم أنهم كانوا في جهنم، فحالهم مثل حال الذي يُصاب بجروحٍ بليغة في حادثة لكنه لا يشعر بالألم في بداية الأمر بسبب حرارة البدن وهول الصدمة فلا ينتبه إلى جروحه ولكنه عندما يرجع تدريجياً إلى الوضع الطبيعي يبدأ بالأحساس بالألم وينتبه إلى جروحه.

---

(١) العنكبوت: ٥٤.

جهنم باطن الدنيا

يقول الحكيم الجليل المرحوم المولى هادي السبزواري:

((... فإن الدنيا باطنه[١] جهنم: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾[٢]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾[٣].

وروي عن النبي ﷺ أنه كان قاعداً مع أصحابه في المسجد فسمعوا هدةً عظيمة فارتاعوا، فقال ﷺ: ((أتعرفون ما هذه الهدة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: حجر أُلقي من أعلى جهنم مُنذ سبعين سنة الآن وصل إلى قعرها ومن سقوطه فيها هذه الهدة)).

فما فرغ ﷺ من كلامه إلا والصراخ في دار منافق من المنافقين قد مات وكان عمره سبعين سنة، فقال رسول الله ﷺ: الله أكبر. فعلمت الصحابة أن هذا الحجر هو ذاك، وأنه منذ خلقه الله يهوي في جهنم فلما مات حصل في قعرها. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾[٤].

---

(١) هكذا، ولعل كلمة (عالم) قد سقطت قبل الدنيا وبدونها فالصحيح هو باطنها.

(٢) التوبة: ٤٩، العنكبوت: ٥٤.

(٣) النساء: ١٠.

(٤) النساء: ١٤٥.

ولكـون بـاطن الدنـيا هو جهنم كان المراد بالورود على النار في قولـه تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾[١] هـو الـورود عـلى الدنـيا، ولـذا حيث يُسأل عن شموله لهم عليهم السلام قال عليه السلام: ((جـزناها وهـي خـامدة)). يعـني لم ينشب فينا مخالب الدنيا ولم نقع في شراكها، ولم تتعلق بأذيالنا أيدي علائقها[٢].

فـيا عزيـزي! إن كنـت تؤمـن بالمبدأ والمعاد، وإذا كنت صادقاً في قولك أنك تريد أن تكون صالحاً متورعاً عن المعاصي لكنك لا تعرف السـبيل لذلـك، فاعـلم إنه إذا كان سبب الابتلاء بالذنوب هو مجرد الغفلة عن تلك العقائد الحقة؛ فاعلم أن بلسم دائك وعلاج مرضك هـو مـا بيـنه لـك الإمـام الحسـين بـن علـي عليهما السلام في هـذا الحديـث الـنوراني، ولذلـك ينـبغي لـك أن تتدبر بدقةٍ في كل واحد من تلك الأمـور الخمسـة الـتي ذكرها الإمام عليه السلام وتجعلها دائماً نصب عينيك

---

(١) مريم: ٧١.

(٢) شـرح الأسمـاء الحسنى، الشيخ المولى هادي السبزواري، ص٣٠. وتوضيح قوله هو أن للدنيا صورتين ظاهرية وباطنية، فظاهرها هو هذا الذي يشاهده الناس ويأنسـون به وهو الذي يقول الله تبارك وتـعالـى فـي سـورة الروم الآية ٧: ﴿يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾.
أمـا باطن الدنيا فهو عبارة عن جهنم في الآخرة وسيتضح للناس يوم القيامة لأنه اليوم الذي تبلى فيه السرائر وتتضح فيه الحقائق. [المؤلف].

عسى أن تخطو خطوات جادة ومؤثرة ـ بعون الله ـ في الحد من الذنوب وإصلاح المفاسد الأخلاقية؛ ثم تبتعد عن الذنوب بالكامل.
وما ذلك على الله بعزيز.

الفصل السادس

ذكر الله ركن ((المراقبة)) الأساسي

تقـدم القـول ـ وعرفـت أنـت أيضاً يا عزيزي ـ بأن على المبتلى بالذنوب أن يلتزم عرى المراقبة لكي يبعد بها عن نفسه شباك الغفلة ولكي يتحرر بذلك من أسر المعاصي، هذا إذا كان وقوعه في ارتكاب الذنـوب بسـبب الغفلـة. أمـا الآن فحديثـنا هو عن الركن الأساسي للمراقبة المستمرة في كل حال وهو ((ذكر الله)) وهو من أصعب الأمور كمـا يسـتفاد مـن بعـض الأحاديث الشريفة[1] ولذلك أيضاً كان من أفضل الأعمال[2].

---

(١) قـال رسـول الله ﷺ ((يـا علـيّ! ثلاث لا تطيقها هذه الأمة: المواساة للأخ في مالـه وإنصاف الناس من نفسه وذكر الله على كل حال)). بحار الأنوار، ج٧٤، ص٤٥.

(٢) قـال رسـول الله ﷺ ((يـا عليّ! سيّد الأعمال ثلاث خصال: إنصافك الناس مـن نفسك، ومواساتك الأخ في الله ـ عز وجل ـ وذكرك الله ـ تبارك وتعالى ـ على كل حال)). بحار الأنوار، ج٧٤، ص٤٤.

ويكفي في الدلالة على عظمة وأهمية الذكر أن الله تبارك وتعالى لم يجعل له حداً ولم يرض بالقليل منه، روى ثقة الإسلام الكليني في كتاب الدعاء من أصول الكافي في باب ذكر الله مسنداً عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

((ما من شيءٍ إلا وله حد ينتهي إليه إلا الذكر فليس له حد ينتهي إليه. فرض الله الفرائض فمن أدّاهن فهو حدهن، وشهر رمضان فمن صامه فهو حدهُ، والحج فمن حج فهو حده. إلا الذكر، فإن الله عز وجل لم يرض منه بالقليل ولم يجعل له حداً ينتهي إليه)). ثم تلا عليه السلام هذه الآية: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً**﴾[1].

فقال عليه السلام: ((لم يجعل الله عز وجل له حداً ينتهي إليه. قال: وكان أبي عليه السلام كثير الذكر، لقد كنت أمشي معه وإنه ليذكر الله وآكل معه الطعام وإنه ليذكر الله، ولقد كان يحدث القوم وما يشغله ذلك عن ذكر الله، وكنت أرى لسانه لازقاً بحنكه يقول: لا إله إلا الله. وكان يجمعنا فيأمرنا بالذكر حتى تطلع الشمس، ويأمر بالقراءة من كان يقرأ منا، ومن كان لم يقرأ منا أمره بالذكر)).

---

(١) الأحزاب: ٤١.

هـذه إشـارة إلى أهمـية ذكـر الله باعتـبار الركن الأساسي والمهم للمراقـبة، ومـن المناسب هنا التطرق لآثاره وخواصه وكذلك عواقب وتـبعات الغفلـة عـنه، وكـل ذلـك اسـتناداً إلى الآيـات والأحاديـث الشريفة، وبذلك نضاعف من فوائد وعوائد هذا البحث:

آثار ذكر الله وخواصه

أ: ذكر الله سبب طمأنينة القلوب:

قال تعالى: ﴿**أَلاَ بِذِكْرِ الله تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾[١].

فلا سبيل للقلق والخوف إلى القلب الغارق في ذكر الله فلا يصيبه الاضطراب والهلع.

ب: ذكر الله سبب الفلاح:

قـال عـز مـن قـائل: ﴿**فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ الله وَاذْكُرُوا الله كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾[٢]، ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِيـنَ آمَـنُـواْ إِذَا لَـقِيـتُمْ فِـئَةً فَاثْبُـتُواْ وَاذْكُـرُواْ الله كَـثِيرًا لَّعَلَّكُـمْ تُفْلَحُونَ**﴾[٣].

---

(١) الرعد: ٢٨.

(٢) الجمعة: ١٠.

(٣) الأنفال: ٤٥.

يُستفاد من هاتين الآيتين الكريمتين أن انتصار المؤمن وفلاحه ـ سواء في ميادين الحرب والجهاد؛ أو في ميادين العمل والكسب، مرهون بذكر الله، فالعامل أو الكاسب أو الموظّف الإداري أو الرئيس إذا كان غافلاً عن ذكر الله تعالى لن يرى وجه الفلاح أبداً وان كان ظاهره يعجب الآخرين. كذلك حال المقاتل والعسكري فهو لن يحقق الانتصار الحقيقي إذا غفل عن ذكر الله حتى لو كان مسار المعركة منسجماً مع رغبته لأيام قليلة.

ج: ذكر الله سبب لذكر الله لعبده:

قال تبارك وتعالى: ﴿**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ**﴾[1].

وفي الحديث القدسي: ((قال الله عز وجل لعيسى عليه السلام: يا عيسى! اذكرني في نفسك أذكرك في نفسي، واذكرني في ملأك أذكرك في ملأ خير من ملأ الآدميين))[2].

د: ذكر الله من خصال أولي الألباب:

قال سبحانه: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِم...**﴾[3].

---

(١) البقرة: ١٥٢.

(٢) أصول الكافي، ج٢، ص٣٦٤.

(٣) آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩١.

هـ: ذكر الله غاية الصلاة:

قال الحق تعالى لكليمه موسى عليه السلام: ﴿**إِنَّنِي أَنَا اللهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي**﴾[1]. وعليه يتضح أن الهدف من الصلاة التي هي عمود الدين هو ذكر الله، وذكر الله هو الذي يمنح الصلاة روحها وأصالتها، فالصلاة الخالية من ذكر الله هي جسد بلا روح ولذلك تكون قيمتها قليلة للغاية.

و: ذكر الله مفتاح الدخول في ضيافة الله:

جاء في الحديث القدسي: ((قال الله سبحانه في بعض كتبه: أهل ذكري في ضيافتي))[2].

ز: ذكر الله يجعل الإنسان جليساً لله:

في الحديث القدسي: ((قال الله تعالى: أنا جليس من ذكرني))[3].

ولا يخفى أن الجليس يؤثر فيمن يجالسه ويتأثر به، يقول الشاعر سعدي الشيرازي ـ عليه الرحمة ـ في أبيات يقول فيها:

گلى خوشبوى در حمام روزى رسيد ازدست محبوبى به دستم
بدو گفتم: كه مشكى يا عبيرى كه از بوى دل آويز تو مستم

---

(١) طه: ١٤.

(٢) إرشاد القلوب، الحسن بن محمد الديلمي، الباب ٢١، ص٨٢.

(٣) المصدر السابق، الباب ١٣، ص٦٠.

بگفــتا: مــن گلــى ناچــيز بــودم ولیکـــن مدّتـــى بـــاگل نشســـتم
كمـــال همنشـــين در مـــن اثـــر كرد وگـــرنه من همان خاكم كه هستم[(١)]

وعلـيه يتضـح أن مـن يتشـرف بمجالسـة الله تبارك وتعالى ببركة ذكـره عز وجل، يتصف تدريجياً بصفات الربوبية بحكم تأثير الجليس في المجالس؛ وبالتالي يتحول إلى موجود ملكوتي.

ح: ذكر الله وسيلة التنعم في رياض الجنة:

روي عن النبي الأكرم ﷺ أنه قال:

((ارتعـوا في ريـاض الجـنة. قـالوا: ومـا رياض الجنة؟ قال: الذكر غـدواً ورواحاً، فاذكروا... ألا أن خير أعمالكم وأزكاها عند مليككم، وأرفعهـا عـند ربكم في درجاتكم وخير ما طلعت عليه الشمس ذكر الله سبحانه وتعالى))[(٢)].

---

(١) ديـوان (گلستان سـعدي). الشـيخ مصلح الدين سعدي الشيرازي، ص٣. [ما ترجمته النثرية]:
وصـلتني مـن يـد الحبيـب يومـاً طيـنة طيبة الرائحة، قلت لها: أنت المسك أم العنبر، فقد أسكرتني رائحتك التي تستقطب القلوب؟
قالـت: كنـت قطعـة طين وضيعة لكني جالسـت زهرة مدة من الزمان فأثر في كمالها، وبدونه فإنا مجرد تراب

(٢) إرشاد القلوب، الديلمي، الباب ١٣، ص٦٠.

ط: ذكر الله يستجلب حبه تعالى:

عن رسول الله ﷺ قال: ((من أكثر ذكر الله أحبه الله))[١].

ي: ذكر الله أمان من النار والنفاق:

وعنه ﷺ قال: ((من أكثر ذكر الله كتبت له براءتان: براءة من النار وبراءة من النفاق))[٢].

ك: ذكر الله علامة الحياة الحقة:

عن النبي الأكرم ﷺ ((مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكره مثل الحي والميت))[٣].

ل: ذكر الله يطهر القلوب:

قال أمير المؤمنين عليه السلام: ((إن الله سبحانه جعل الذكر جلاءً للقلوب، تسمع به بعد الوقرة وتبصر به بعد الغشوة وتنقاد به بعد المعاندة))[٤].

---

(١) أصول الكافي، الكليني، ج٢، ص٣٦٢.

(٢) المصدر السابق.

(٣) مفردات القرآن، محمد حسن الحمصي، ذيل الآية ٤٥ من سورة العنكبوت.

(٤) نهج البلاغة، شرح محمد عبده، الخطبة ٢٢٠.

تبعات وعواقب الغفلة والإعراض عن ذكر الله

أ: الإعراض عن ذكر الله يؤدي إلى ضنك العيش في الدنيا والعمى في الآخرة

قال عز من قائل:

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾[(١)].

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾[(٢)].

﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾[(٣)].

ب: ترك ذكر الله علامة النفاق:

قال سبحانه وتعالى:

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللهَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾[(٤)].

---

(١) طه: ١٢٤.

(٢) يوسف: ٤٢.

(٣) الجن، ١٧.

(٤) النساء: ١٤٢.

ج: عدم ذكر الله يورث الوبال والحسرة:

روي عن الإمام الصادق عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: ((ما من قوم اجتمعوا في مجلس فلم يذكروا اسم الله عز وجل ولم يصلوا على نبيهم إلا كان ذلك المجلس حسرةً ووبالاً عليهم))[١].

وقال: ((إن أهل الجنة لا يندمون على شيء من أمور الدنيا إلا على ساعة مرت بهم في الدنيا لم يذكروا الله فيها))[٢].

د: الإعراض عن ذكر الله يسوق الإنسان لمجالسة الشياطين

قال تعالى: ﴿**وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ**﴾[٣].

هـ: الإعراض عن ذكر الله يكرس الضلالة

قال عز وجل: ﴿**فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**﴾[٤].

و: نسيان ذكر الله يميت القلب

روي في الحديث القدسي: ((فيما ناجى الله به موسى عليه السلام قال:

---

(١) أصول الكافي، ج٢، ص٣٦٠.

(٢) مستدرك الوسائل، الميرزا حسين النوري، ج١، ص٣٨٢.

(٣) الزخرف: ٣٦.

(٤) الزمر: ٢٢.

يا موسى لا تنسني على كل حال فإن نسياني يميت القلب))[١].

ز: نسيان الله يُنسي النفس ويورث الفسق

قال تعالى: ﴿**وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا الله فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾[٢].

ولا يخفى أن الذي لا يفكر بالله ولا يفكر بنفسه لا يتورع عن ارتكاب أي موبقةٍ أو ذنب فمثله مثل الذي يركب فرساً شموساً قد فقد لجامهُ والسيطرة عليه وهو يسير به في طريق محفوف بالمخاطر والأودية السحيقة ومن المحتمل أن يسقط ـ في كل لحظة ـ في أحد الأودية ويهلك.

والغافل عن ذكر الله محروم من جميع الآثار الطيبة لذكر الله والمواهب السنية التي يحظى بها أهل الذكر إضافة إلى أنه يعرض نفسه للتبعات السيئة التي يشتمل عليها الإعراض عن ذكره جل وعلا. ولأهل الذكر مقامات سامية ذكرها قدوة السالكين ورائد الذاكرين الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في إحدى خطبه البليغة نتبرك هنا بنقل مقطعٍ منها حيث يقول عليه السلام: ((وإن للذكر لأهلاً أخذوه من الدنيا بدلاً فلم تشغلهم تجارة ولا بيع عنه، يقطعون به أيام الحياة،

---

(١) أصول الكافي، ج٢، ص٣٦١.

(٢) الحشر: ١٩.

ويهتفون بالزواجر عن محارم الله في أسماع الغافلين ويأمرون بالقسط ويأتمرون به، وينهون عن المنكر ويتناهون عنه، فكأنما قطعوا الدنيا إلى الآخرة وهم فيها فشاهدوا ما وراء ذلك، فكأنما اطلعوا غيوب أهل البرزخ في طول الإقامة فيه، وحققت القيامة عليهم عداتها، فكشفوا غطاء ذلك لأهل الدنيا حتى كأنهم يرون ما لا يرى الناس ويسمعون ما لا يسمعون))[١].

كما قال الشاعر:

أوقات خوش آن بود كه با دوست بسر شد

باقى همه بى حاصلى وبى خبرى بود[٢]

تفكر ـ يا عزيزي ـ في حالك جيداً ولاحظ مقدار ما تذكر الله في نهارك وليلك، ومقدار توجه قلبك إليه عزّ وجل، ومقدار ما تراعي حرمته ورضاه فيما تقوم به من أعمالٍ، تدبر حالك لتعرف هل أنت من أهل الذكر الذين وصفهم أمير المؤمنين عليه السلام ؟ أم من الذين يخطر على أفكارهم وقلوبهم كل شيء سوى ذكر الله ورعاية حرمته؟ إن كنت من الطائفة الأولى فطوبى لك وهنيئاً على هذه النعمة التي

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة رقم: ٢٢٠.

(٢) ترجمة نثرية لبيت شعر بالفارسية للشاعر الإيراني العارف حافظ الشيرازي.
((الأوقات الطيبة هي التي تُقضى مع الحبيب، وما سواها فهي أوقات ضائعة وغفلة)).

تفضـل الله بهـا علـيك، وطوبـى لك البهجة والسرور الذي سيكون نصـيبك. أمـا إذا وجـدت نفسـك مـن الطائفة الثانية ـ لا سمح الله ـ فويـل لـك من الخزي الذي تجلبه على نفسك، وويل لك من الحسرة والندامة التي ستحيط بك يوم القيامة ولن يكون لك مفر منها يومئذ.

الفصل السابع

الصوم أقوى العوامل لتقوية الإرادة

حصيلة ما قلنا إلى الآن هو: إذا كان سبب وقوع العاصي في اسر الذنوب هو فقدان أو ضعف الإيمان بالمبدأ والمعاد وتبعات الأعمال؛ فواجبه الأول هو أن يعمد إلى تقوية إيمانه واعتقاداته لكي يزيل بذلك علة ارتكابه المعاصي ويحرر نفسه من شرورها؛ أما إذا كان من الذين يقبلون على المعاصي بسبب الغفلة عن مقتضيات تلك الاعتقادات، فواجبه أن يتسلح بسلاح ((المراقبة)) المستمرة فيضع نصب عينيه دائماً هذه الاعتقادات لكي يحالفه بذلك توفيق الورع عن المعاصي من خلال التطهر من عامل الوقوع فيها.

أما الآن فالحديث يصل بنا إلى العامل الثالث للوقوع في الذنوب، فماذا يفعل للتورع عنها مَنْ يقع فيها بسبب ضعف الإرادة؟ نقول ـ في مقام الجواب ـ: إذا كان المبتلى بارتكاب المعاصي بسبب ضعف الإرادة وحده مع اعتقاده بالمبدأ والمعاد وتبعات الأعمال وعدم غفلته عنها؛ صادقاً في سعيه لإصلاح حاله وفي التحرر من أسر

الذنـوب؛ فعلـيه أولاً أن يعمـد إلى تقويـة إرادته الضعيفة من خلال الالـتزام ببعض الرياضات الشرعية، فإذا قويت إرادته تمكن بسهولة من التطهر من الذنوب والأمن من شرورها.

فـإذا سألتني: أي رياضة شرعية تعين الإنسان على تقوية إرادته؟ أجيب: إنه الصيام وهو على راس الرياضات الشرعية النافعة في هذا المجـال، ولـه آثار عميقة جداً وعجيبة في تقوية الإرادة إذا كان الالتزام به مقترناً برعاية جميع شروطه وضوابطه الخاصة. قال الله تبارك وتعالى:

﴿يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[1].

علاقة الصوم بتقوية الإرادة

إذا قـيل: مـا هي علاقة الصوم بتقوية الإرادة؟ نقول في الجواب: ربما يتوهم الإنسان ويعدّ نفسه ضعيفاً عندما يكون في حالة عادية لأنه يجهـل الطاقات التي أودعها الله في وجوده؛ أو لأنه لا يوجد فيه ـ وهو في حالـته العاديـة ـ مـا يدفعه إلى استثارة هذه الطاقات الكامنة فيه، لكـنّه إذا وقـع في مضـيق واضطر إلى الاستعانة بالطاقات الكامنة فيه والاسـتفادة مـنها بأقصـى حـدّ ممكن، يدرك بنفسه أن الضعف الذي

---

(١) البقرة: ١٨٣، وواضح من الآية الكريمة أن الصوم وسيلة لتحصيل التقوى.

كان يشعر به هو مجرد وهم لا أكثر.

إذن فما كان في حالته الأولى العادية هو استضعاف لنفسه وليس ضعفاً فيها، بمعنى أن عدم خوضه لمعترك التحديات أغفله عن ذاته والطاقات الكائنة فيها فتوهم أنها ضعيفة، لكنه عندما يدخل ميدان العمل ويسعى للاستفادة الجادة من الإمكانات المتاحة له بهدف الوصول إلى ما يطلبه، حينئذٍ يصدق بأنه لم يكن ضعيفاً كما توهم بل على العكس كان قوياً للغاية دون أن يعلم بذلك!

نعلم جميعاً ـ بدرجةٍ أو بأخرى ـ بخصوصيات المناورات والعمليات التدريبية العسكرية أو سمعنا على الأقل بها، وعرفنا أنه لا يوجد فيها عدو في الواقع، بل يفترضون ـ مجرد فرض ـ وجوده ويخصصون له مواقع معينة، ثم يأمرون المقاتلين بمواجهة هذا العدو المفترض ـ ومن خلال ذلك يتعرفون على مستوى الكفاءة القتالية لهم ويطمأنون من قدرتهم على القتال ـ دون ضعف ـ ضد عدو حقيقي إذا تعرضوا له يوماً.

وهنا لا يخفى أن هؤلاء المقاتلين الذين اشتركوا في هذه المناورات التدريبية واطلعوا على قدراتهم القتالية؛ إذا أرادوا يوماً خوض مواجهة حقيقية مع العدو دون أن يكونوا قد اشتركوا في مثل هذه المناورات؛ فإنهم ولا ريب لن يكون على الدرجة نفسها من

الاستعداد القتالي والثقة بالنفس إذا ما اشتركوا في مثل هذه المناورات بل سيشعرون بالضعف الذي قد يؤدي إلى هزيمتهم.

من هنا يتضح أن الذي يرى نفسه ضعيفاً في مقابل الأهواء النفسية والغرائز الجامحة ويعتبر إرادته ضعيفة في مواجهتها ولذلك يستسلم دون أدنى مقاومة للإغراءات الشيطانية فيقع في ارتكاب المعاصي بسهولة؛ هذا الشخص ليس ضعيفاً في الواقع بل هو الذي ساق نفسه إلى موقع الاستضعاف لنفسه ولم يثق بها وبقوة إرادته، إنه يسيء الظن بنفسه ولذلك لا يتجرأ على مجاهدة الأهواء. ومعالجة هذه الحالة يكمن في أن يشترك في عمليات مناورات، ويفترض له أمور من المباحات كأعداءٍ يتخذ قراراً بمجاهدتهم ويأمر بخوض هذا الجهاد خلال ساعات معينة؛ كأن يأمر مثلاً بالامتناع عن شرب الماء خلال هذه المدة رغم شعوره بالعطش أو الامتناع عن تناول الطعام رغم شعوره بالجوع ونظائر ذلك. ومن الضروري أن يوضع عقوبات ثقيلة لنقض هذه الأوامر دفعاً لتوهم أنها أوامر شكلية لا أثر لها.

فإنّ هذا الشخص إذا التزم بما ذكر مدة سرعان ما سيدرك ـ حتماً ـ أن إرادته قوية ويتعرف تدريجياً على عظمة الطاقات الكامنة فيه، فإذا تيقن من قدرته على الامتناع عن بعض الأمور رغم ميله الباطني إليها، عندها ستزول عنه ـ حتماً ـ تلك الرهبة السابقة

والشعور بالضعف من قدرته على مواجهة ميوله النفسية وبذلك سيجاهد الذنوب والأهواء النفسية دون شعور بالضعف.

فيا عزيزي؛ إذا أمعنت الفكر فيما تقدم لما بقي لديك أدنى شك في آثار الصوم على إرادة الإنسان واظهار الطاقات والكفاءات الكامنة فيه، فالله تبارك وتعالى وبتشريعه لفريضة الصوم أمر في الواقع باجراء ((مناورة أخلاقية)) فحرّم مجموعة من الأمور معظمها من المباحات ولكن بصورة مؤقتة ودعا المؤمنين إلى خوض معترك مواجهتها، وهدفه من هذه الفريضة هو جعل المؤمنين يدركون حقيقة أنهم قادرون على الإمساك ـ بطواعية وبارادتهم دون وجود محاذير خارجية ـ عن الكثير من الأشياء رغم ميلهم الباطني إليها.

وواضح أن الإنسان إذا رأى نفسه قادراً على مواجهة ميوله الباطنية في عدة موارد، فإنه سيكون قادراً على التخلي عن حالة الضعف والتسليم للموارد الأخرى ـ وهي المحرمات الحقيقية ـ، فيعمد إلى مواجهتها باقتدار وردع الأهواء النفسية والإغراءات الشيطانية الداعية لها.

من هنا، إذا كنت ـ يا عزيزي ـ تشكو من ضعف إرادتك وتجد نفسك عاجزاً عن مواجهة الأهواء النفسانية غير المشروعة؛ فعليك أن تستمثر شهر رمضان المبارك ـ وهو شهر الإصلاح الذاتي وموسم

جهاد النفس ـ إذا كنت حقاً راغباً في إصلاح نفسك والتحرر مما تشكو منه؛ عليك أن تخوض تجربة الصيام المباركة مراعياً لآدابها وشروطها وضوابطها الخاصة، فأنت أيضاً قادر ـ ومثل الكثيرين من عباد الله المخلصين ـ على السيطرة على نفسك وردعها عن مطالبها غير المشروعة.

أهمية شهر رمضان المبارك ومنزلة فريضة الصوم

وحيث قد انتهى الكلام إلى هنا، فمن المناسب للغاية أن نتطرق ـ ولو باشارات مختصرة ـ إلى الحديث عن أهمية شهر رمضان المبارك والمنزلة الاستثنائية التي تحظى بها فريضة الصوم وكذلك أقسام الصوم وشروط كل منها. فنقول: يكفي في بيان فضيلة وشرف هذا الشهر المبارك أنه الشهر الوحيد الذي ذكر الله تبارك وتعالى اسمه في كتابه الكريم ووصفه بأنه الظرف الزماني للنزول الإنزالي للقرآن المجيد ـ وهو من أعظم العطايا الإلهية للمجتمع البشري ـ؛ قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾[1].

---

(١) البقرة: ١٨٥.

ولعل بسبب هذه الفضيلة وصفت بعض الأحاديث الشريفة هذا الشهر بأنه: ((رأس السنة))[١]؛ واستناداً لذلك صرح بعض الأعاظم بكونه أوّل السنة العبادية. يقول العالم الجليل صاحب الكرامات السيد ابن طاووس ـ رضوان الله تعالى عليه ـ في كتابه القيم ((إقبال الأعمال)):

((واعلم، أني وجدت الروايات مختلفات في أنه: هل أول السنة المحرم أو شهر رمضان؟ لكني رأيتُ عمل مَن أدركته من علماء أصحابنا المعتبرين وكثيراً من تصانيف علمائهم الماضين أن أول السنة شهر رمضان على التعيين، ولعل شهر الصيام أول العام في عبادات الإسلام والمحرم أول السنة في غير ذلك من التواريخ ومهام الأنام))[٢].

وعلى أي حال؛ وسواء اعتبرنا شهر رمضان أو شهر محرم أول السنة؛ فإن الشك لا يتطرق بحال من الأحوال إلى المكانة الخاصة التي يحظى بها الشهر المبارك والأهمية التي له عند أعاظم الدين.

---

(١) عن الإمام الصادق عليه السلام قال: ((شهر رمضان رأس السنة))، إقبال الأعمال، السيد ابن طاووس، ص٤.

(٢) المصدر السابق.

الخطبة النبوية في استقبال شهر رمضان المبارك

لعلنا لا نجد في أحاديث المعصومين عليهم السلام المروية في بيان فضيلة شهر رمضان المبارك نصاً أجمع من خطبة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله التي ألقاها في آخر جمعة من شهر شعبان في إحدى السنين التي تلت هجرته إلى المدينة المنورة وذلك في استقبال هذا الشهر المبارك فقد اشتملت على بيان تكاليف المسلمين فيه إضافة إلى بيان عظمة شأنه وسمو منزلته لذلك نبارك هذه الرسالة المختصرةَ بنقل هذه الخطبة أولاً ثم نرد فيها بتوضيح لبعض مقاطعها المهمة.

روى المرحوم السيد ابن طاووس ـ قدس الله نفسه الزكية ـ في كتاب إقبال الأعمال ـ نقلاً عن كتاب بشارة المصطفى لشيعة المرتضى ـ، عن الحسن بن علي بن فضال عن الإمام أبي الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام عن آبائه عليهم السلام عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام قال: ((إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله خطبنا ذات يوم فقال:

أيها الناس! إنه قد أقبل إليكم شهر الله بالبركة والرحمة والمغفرة، شهر هو عند الله أفضل الشهور، وأيامه أفضل الأيام، ولياليه أفضل الليالي، وساعاته أفضل الساعات.

هو شهر دُعيتم فيه إلى ضيافة الله وجُعلتم فيه من أهل كرامة الله. أنفاسكم فيه تسبيح، ونومكم فيه عبادة، وعملكم فيه مقبول،

ودعاؤكم فيه مستجاب.

فأسألوا الله ربكم بنياتٍ صادقةٍ وقلوب طاهرة أن يوفقكم لصيامه وتلاوة كتابه، فإن الشقي من حُرِمَ غفران الله في هذا الشهر العظيم.

واذكروا بجوعكم وعطشكم فيه جوع يوم القيامة وعطشِهِ وتصدقوا على فقرائكم ومساكينكم، ووقروا كباركم وارحموا صغاركم، وصلوا أرحامكم وأحفظوا ألسنتكم وغضوا عما لا يحل النظر أليه أبصاركم؛ وعما لا يحل الاستماع إليه أسماعكم، وتحننوا على أيتام الناس يُتحنن على أيتامكم.

وتوبوا إلى الله من ذنوبكم وأرفعوا إليه أيديكم بالدعاء في أوقات صلواتكم؛ فإنها أفضل الساعات ينظر الله عز وجل فيها بالرحمة إلى عبادِهِ، يجيبهم إذا ناجوه، ويلبيهم إذا نادوه، ويستجيب لهم إذا دعوه.

أيها الناس! إن أنفسكم مرهونة بأعمالكم ففكوها باستغفاركم، وظهوركم ثقيلة من أوزاركم فخففوا عنها بطول سجودكم.

وأعلموا، إن الله ـ تعالى ذكره ـ أقسم بعزته أن لا يعذب المصلين والساجدين وأن لا يروعهم بالنار يوم يقوم الناس لرب العالمين.

أيها الناس! مَن فطر منكم صائماً مؤمناً في هذا الشهر كان له

بذلك عند الله عتق رقبة ومغفرة لما مضى من ذنوبه.

قيل: يا رسول الله، وليس كلنا يقدر على ذلك.

فقال ﷺ:

إتقوا الله ولو بشق تمرة، إتقوا الله ولو بشربة من ماء.

أيها الناس! مَن حَسَّن منكم في هذا الشهر خلقَه كان له جواز على الصراط يوم تَزِلّ فيه الأقدام.

ومَن خفف في هذا الشهر عما ملكت يمينه خفف الله عليه حسابه.

ومَن كفّ فيه شرّه كف الله عنه غضبه يوم يلقاه.

ومَن أكرم فيه يتيماً أكرمه الله يوم يلقاه.

ومَن وَصَلَ فيه رَحِمَه وصلَه الله برحمته يوم يلقاه.

ومَن قطع فيه رحمه قطع الله عنه رحمته يوم يلقاه.

ومَن تطوع فيه بصلاة كتب الله له براءةً من النار.

ومَن أدى فيه فرضاً كان له ثواب من أدى سبعين فريضةً فيما سواه من الشهور.

ومَن أكثر فيه الصلاة عليّ ثَقَّلَ الله ميزانه يومَ تخفّ الموازين.

ومَن تلا فيه آية من القرآن كان له مثل أجر من ختم القرآن في غيره من الشهور.

أيها الناس! إن أبواب الجنان في هذا الشهر مفتحة، فسلوا ربكم أن لا يغلقها عليكم)).

وأبواب النيران مغلقة فسلوا ربكم أن لا يفتحها عليكم.

والشياطين مغلولة فسلوا ربكم أن لا يسلطها عليكم.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: ((فقمتُ وقلتُ: يا رسول الله ما أفضل الأعمال في هذا الشهر؟ فقال: يا أبا الحسن! أفضل الأعمال في هذا الشهر الورع عن محارم الله...))[١].

---

(١) إقبال الأعمال، السيد ابن طاووس، ص٢.

الفصل الثامن

تحقيق في معنى ضيافة الله لعباده

ثمة قضيتان في الخطبة الشريفة المتقدمة يحتاج إدراكهما إلى المزيد من التدبر؛ الأولى ترتبط بتصريح رسول الله ﷺ بأن المؤمنين قد دعوا إلى ضيافة الله في شهر رمضان المبارك، وقد جعلوا فيه من أهل كرامة الله، فما هو مقصوده ﷺ؟ وما هو معنى ضيافة الله؟ وما معنى كون المؤمنين ضيوفاً على الله في شهر رمضان؟ وما معنى كون الله مضيفاً لهم فيه؟

للإجابة على هذه التساؤلات ينبغي أولاً التأمل في معنى وخصوصيات ((الضيافة)) المألوفة عند بني الإنسان الذين يخضعون لقيم الفطرة الإلهية. من هنا نقول: إذا نزل بكم ضيف فكيف تعاملونه خاصة إذا كنتم قد دعوتموه لضيافتكم بأنفسكم؟ ألا تسعون إلى إكرامه بكل ما استطعتم وإجلاسه في أفضل غرف المنزل وفي أفضل مكانٍ فيها؟ ألا تجتهدون في استضافته بأفضل الأطعمة ووسائل الضيافة؟

لا ريب في أن كل إنسانٍ يلتزم ـ مادام باقياً على فطرته السليمة ـ بإكرام الضيف والتواضع لـه وتوفير أفضل ما يمكن من وسائل الضيافة ووضعها تحت تصرفه وتخصيص أفضل أثاث ووسائل المنزل لـه وتقديم أفضل الأطعمة له. وهنا نسأل: هل أن الله تبارك وتعالى مستثنى من هذه القاعدة وهو يستضيف المؤمنين في شهر رمضان المبارك كما صرح بذلك رسول الله ﷺ؟

الإجابة على هذا السؤال هي بالنفي قطعاً، وذلك لأن حسن الضيافة من الصفات الكمالية وقد أودعها الله تبارك وتعالى في فطرة الإنسان كإحدى كمالاتها، هذا من جهة ومن جهة أخرى نعلمُ جميعاً أن الله سبحانه هو مبدأُ ومصدر جميع الكمالات، فأي صفة كمالية نراها في أي شخص أو شيءٍ موجودة في الله عز وجل بأشرف وأكمل صورها. من هنا فلا يمكن بحال من الأحوال أن نقول بأن الله جل وعلا قد جعل إكرام الضيف واحترامه صفة كمال في فطرة الإنسان دون أن يكون هو عز وجل متحلياً بها، مثلما أن من غير الممكن أن نقول أنه سبحانه دعا الناس للعدل لكنه هو بنفسه ـ والعياذ به من هذا القول ـ ظالم!!

وبناءً على ما تقدم تكون النتيجة هي أن الله تبارك وتعالى ـ وكمضيف ـ يكرم ضيفه بأفضل صورة ويُنزله أفضل منزلٍ ومقام

ويقدم لـه أشرف الأشياء وأنفسها.

إذا عرفـت ذلـك فينـبغي أن تـتعرّف على طبيعة إنطباق الأمور المـتقدمة عـلى الله عز وجل وضيافته الكريمة، فما هي المنازل الفضلى الـتي يُـنزل الله تعالى فيها ضيوفه؟ وما هي أشرف الأشياء التي يقدمها لهم؟ وكيف يقدمها للصائمين في شهر رمضان المبارك وهم ضيوفه؟

نقـول ـ في مقام الإجابة على هذه الأسئلة ـ: إن أفضل المكانات والمـنازل هـي مـنزلة الربوبـية، فـلا يمكن تصور منزلة في عالم ومملكة الوجـود أشـرف وأعـلى مرتـبة مـنها. أمـا أشـرف الأشـياء وأفضـل الموجودات فهو الله تبارك وتعالى فلا يمكن افتراض أشرف منه في عالم الموجــودات ولــذلك وبملاحظـة ما تقدم يتضح أن معنى قول رسول الله ﷺ : ((دعيـتم فـيه إلى ضـيافة الله))، هـو أن الصـائم إذا صـام بـاخلاص وبالصـورة المطلوبة، ودخل بذلك حقاً في ضيافة الله؛ فإنه سيصـل إلى أفضـل المـنازل وهـو منزلة الربوبية وسيفوز بلقاء أشرف الموجـودات وهـو الله جـل وعلا؛ وبعبارة أخرى فإن الصائم الحقيقي سيصـبح ـ بـبركة الصـوم الصـادق المخلـص ـ مظهراً للأسماء الإلهية الحسـنى ومـرآةً كاملـة للحق عز وجل، وبذلك سيفوز بلقاء الله جل جلاله.

والآن نتدبر ـ مع ملاحظة الحقائق المتقدمة ـ في النصوص التالية

ونذكر بالدلالات المستفادة منها:

أ: قال رسول الله ﷺ: ((لكل شيء باب وباب العبادة الصوم))[١].

ب: وقال الإمام الصادق عليه السلام: ((العبودية جوهرة كنهها الربوبية))[٢].

مفهوم الحديث الأول هو عدم إمكان الوصول إلى العبادة بغير الصوم، ومفهوم الحديث الثاني هو عدم إمكان إدراك الربوبية بغير العبودية، فإذا تدبرنا في هذين الحديثين الشريفين نصل إلى نتيجة مفادها هو: إن الإنسان يصل إلى العبودية من طريق الصوم ويصل إلى الربوبية من طريق العبودية، وهذه هي الحقيقة التي أشرنا إليها حيث قلنا: إن الصائم إذا دخل حقاً في ضيافة الله فإنه سيصل إلى الربوبية.

ج: قال الله تبارك وتعالى في الحديث القدسي:

((عبدي أطعني أجعلك مَثَلي؛ أنا حي لا أموت أجعلك حياً لا تموت، أنا غني لا أفتقر أجعلك غنياً لا تفتقر؛ أنا مهما أشاء يكون،

---

(١) المحجة البيضاء في تهذيب الأحياء، المولى محسن الفيض الكاشاني، ج٢، ص ١٢٢.

(٢) مصباح الشريعة، المنسوب للإمام الصادق عليه السلام، الباب رقم ١٠٠.

أجعلك مهما تشاء يكون))[١].

يصل الإنسان ـ طبق مفاد هذا الحديث القدسي ـ بواسطة طاعة الله عز وجل والعبودية لـه إلى مرتبة يصبح فيها مَثَلاً لله جل وعلا فتصدر منه أفعال إلهية، وبعبارة أخرى فإن الإنسان يعرج بواسطة العبادة إلى مرتبة يفوز معها بمقام ((خليفة الله)) فيتصف بالصفات الربوبية.

وإذا وضعنا هذا الحديث إلى جانب الحديث الأول وتدبرنا فيهما نصل إلى النتيجة التالية: إن الإنسان يصل بواسطة الصوم إلى العبودية وبواسطة العبودية إلى مقام ((الخلافة))؛ وهذا هو معنى ما قلناه من أن الصائم الحقيقي يصبح ـ ببركة الصوم الصادق المخلص ـ مظهراً للأسماء الإلهية الحسنى ومرآة كاملة للحق جلّ وعلا.

د: في الحديث القدسي عن رسول الله ﷺ أن الله تبارك وتعالى يقول:

((الصوم لي وأنا أجزي به))[٢].

يدل هذا الحديث القدسي بحد ذاته وبصورة مستقلة وبصراحة على الحقيقة المتقدمة وعلى ما استنبطناه من الأحاديث المتقدّمة، ففي

---

(١) الجواهر السنية في الأحاديث القدسية، الشيخ الحر العاملي، ص٣٦١.

(٢) المحجة البيضاء، ج٢، ص١٢٣.

هـذا الحديـث الشـريف نجـد تصـريحاً واضـحاً بـأن ((الله)) هو بذاته المقدسة جزاء الصوم، أي أن الصائم يحصل ببركة الصوم على ((الله)). وبديهـي أن المقصود من الحصول على ((الله)) هو الاتصاف بالصفات الربوبية والتشرف بمقام ((الخلافة الإلهية))، وليس المقصود ـ نعوذ بالله ـ أن الله شـيء كسـائر الأشـياء يحصـل الصـائم علـيه مثـلمـا يحصل عليهـا.

معنى كون الصوم ((باب العبادة))

نتطرق الآن إلى البحث بشأن الأسئلة التالية:

كـيف يكـون الصوم باب العبادة؟ وما هي أساساً طبيعة العلاقة بـين العـبادة والصوم والتي تجعل من غير الممكن الوصول إلى العبادة من غير طريق الصوم؟

للإجابة على هذه الأسئلة يجب أن نتعرف أولاً على أمرين:

أ ـ حقيقة العبادة.

ب ـ مراتب الصوم.

حقيقة العبادة

فبالنسـبة للأمـر الأول نقـول: إنّ العـبادة عـبارة عـن الخضـوع

والتسليم المطلق دون قيد أو شرط لأوامر ونواهي المعبود، بمعنى أن يجعل العابد جميع حركاته وسكناته طول حياته طبقاً لما يرضاه معبوده فلا يرتكب عملاً لا يرضيه، فإذا تكلم راقب لسانه لكي لا يتفوه إلا بما يرضي معبوده وإذا سكت لا يكون سكوته خلاف أوامره، إذا نظر إلى شيء يحذر من أن تكون نظرته تخالف أمراً من أوامره؛ إذا تناول طعاماً أو إمتنع عن تناول طعام كان حريصاً على رضا معبوده في كلا الحالين، وبصورة عامة يبتغي مرضاة المعبود في جميع حركاته وسكناته فلا يقوم بما يخالف مرضاة معبوده. من هنا يُقال ـ في العربية ـ للطريق المذلل المستوي بأنه طريق معبد[١] في حين يُقال لكل شيء خارج عن نظم معين بأنه فاسق[٢].

إذن فالعابد هو الذي هيمنت حالة الطاعة والتسليم للمعبود على كل وجوده، فلا يلاحظ عليه أي شكل من أشكال عدم الانسجام مع هذه الحالة، أما الفاسق فهو الذي نقض نظام العبودية وخرج عن طاعة المعبود.

---

(١) في تفسير مجمع البيان للشيخ الطبرسي (ج١، ص٢٥): ((يقال طريق معبد أي مذلل بكثرة الوطء)).

(٢) يقول ابن الأثير في كتاب النهاية، حرف الفاء: ((أصل الفسوق، الخروج عن الاستقامة... وبه سمي العاصي فاسقاً)).

مراتب الصوم

وبعد أن اتضح معنى العبادة ننتقل إلى توضيح الأمر الثاني وهو بيان مراتب الصوم، فنقول: إن علماء الأخلاق وكذلك قاطبة أهل العرفان قد قسموا الصوم إلى ثلاث مراتب:

١ ـ صوم العموم.

٢ ـ صوم الخصوص.

٣ ـ صوم خصوص الخصوص.

أما صوم العموم فهو الذي عرفه عامة المسلمين والتزموا به، أي أن يمتنع الصائم عن ارتكاب المفطرات التسعة (الأكل والشرب، والجماع والاستمناء، والكذب على الله ورسوله وخلفاء رسوله ﷺ، وإيصال الغبار الغليظ إلى الحلق وإدخال كامل الرأس في الماء، والبقاء على الجنابة أو الحيض أو النفاس إلى الفجر، والحقنة بالمائع والتقيؤ).

أما صوم الخصوص الذي يحالف الخواص توفيق الإلتزام به فهو أن يحفظ الصائم ـ إضافة إلى الإمساك عن المفطرات التسعة المتقدمة ـ سمعه وبصره ولسانه ويده وسائر جوارحه عن ارتكاب المعاصي، فيحفظ بصره عن النظر بشهوة، ويحفظ سمعه عن استماع الغيبة والغناء ونظائرهما، ويحفظ لسانه عن الكذب والغيبة والسباب والتهمة والجدال والسخرية ونظائرها، ويحفظ سائر جوارحه عن

الذنوب المرتبطة بها.

وإلى هذه المرتبة من الصوم يشير الرسول الأكرم ﷺ في قوله: ((خمس يفطرن الصائم: الكذب والغيبة والنميمة واليمين الكاذب والنظرة بشهوة))[1]، أو قوله: ((من اغتاب مسلماً بطل صومه ونقض وضوءه فإن مات وهو كذلك مات وهو مستحل لما حرم الله))[2]، أو قوله ﷺ: ((مَن تأمل خلف إمرأة حتى يتبين له حجم عظامها من وراء ثيابها وهو صائم فقد أفطر))[3]، كما يشير إلى هذه المرتبة من الصوم قول الإمام الصادق عليه السلام: ((إذا صمت فليصم سمعك وبصرك من الحرام والقبيح ودع المراء وأذى الخادم، وليكن عليك وقار الصائم ولا تجعل يوم صومك كيوم فطرك))[4].

وأما الأخص من هذا فهو صوم خصوص الخصوص، وفيه يفرغ الصائم ـ إضافة إلى الامتناع عن المفطرات التسعة وكذلك التورع عن مطلق الذنوب ـ قلبه من جميع النوايا والأفكار والخواطر الدنيوية

---

(١) الأخلاق، السيد عبد الله شبر، ص٦٩.

(٢) المحجة البيضاء، المولى محسن الفيض الكاشاني، ج٢، ص١٣٣.

(٣) معاني الأخبار، الشيخ الصدوق، ص٤١٠.

(٤) إقبال الأعمال، السيد ابن طاووس، ج١، ص١٩٥، (الطبعة الحديثة ذات الأجزاء الثلاثة).

وكل ما سوى الحق تبارك وتعالى فيجعله خالصاً لـه جل جلاله وحده مجسداً وصية الإمام الصادق عليه السلام: ((القلب حرمُ الله فلا تُسكن حرم الله غير الله))[١]، إذ أن ((القلب السليم الذي يلقى ربَّهُ وليس فيه أحد سواه))[٢].

وواضح أن هذه المرتبة من الصوم لا تتأتى لكل وارد، بل لا تتيسر لغير عدة معدودةٍ من الذين فازوا بالتوحيد الحقيقي ولذلك فهم لا يرون في دار الوجود غير الله جل وعلا ولا يرون في عالم الوجود مؤثراً سوى أسماء الله وصفاته وأفعاله ولذلك سميت هذه المرتبة بالصوم الأخص أو صوم خصوص الخصوص.

كما لا يخفى أن الصوم المطلوب بذاته والذي يمثل الغاية القصوى لهذه الفريضة والذي يكون ((الله)) هو جزاءهُ؛ هو هذا النوع من الصوم، والصائم بهذا المعنى هو الذي يكون ـ حقاً ـ ضيفَ الله ويكون الله مضيفه؛ وللعارف المتأله المرحوم السيد حيدر الآملي ـ رضوان الله تعالى عليه ـ كلام يناسب المقام أورده في كتابه أسرار الشريعة؛ فبعد أن بَيَّنَ صوم أهل الشريعة وصوم أهل الطريقة ـ

---

(١) بحار الأنوار، العلامة المجلسي، ج٧٠، ص٢٥، طبعة طهران.

(٢) كما في الحديث المروي عن الإمام الصادق عليه السلام في أصول الكافي، ج٢، ص١٤.

اللذين ينطبقان على مرتبتي صوم العموم وصوم الخصوص ـ قال بشأن المرتبة الثالثة ـ أي صوم خصوص الخصوص ـ:

((وأما صوم أهل الحقيقة بعد قيامهم بالصومين المذكورين؛ فهو عبارة عن إمساك العارف عن مشاهدة غير الحق تعالى مطلقاً بحكم قولهم: ليس في الوجود سوى الله تعالى وأسماءه وصفاته وأفعاله، فالكل هو وبه ومنه وإليه... والغرض أنه يجب على العارف:

أولاً: الإمساك عن مشاهدة فعل الغير مطلقاً ليصل به إلى مقام التوحيد الفعلي.

ثم الإمساك عن مشاهدة صفة الغير مطلقاً ليصل به إلى مقام التوحيد الوصفي.

ثم الامساك عن مشاهدة وجود الغير مطلقاً ليصل به إلى مقام التوحيد الذاتي الذي هو المقصود من السلوك مطلقاً، وبل من الوجود بأسره ويصدق عليه أنه صائم بالصوم الحقيقي، ممسك عما سواه بالكلية، وهذا هو الصوم الذي ورد [بشأنه]: ((أن كل حسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزى به)). لأن غير هذا الصوم لا يستحق أن يكون هو [تعالى] جزاءه، بل جزاء هذا الصوم لا يكون إلا هو، لأن الصومين المذكورين [يعني صوم العموم وصوم الخصوص] جزاءهما الجنة والنعيم والحورُ والقصور أو

القرب والوصول والكشف والشهود، وهذا الصوم جزاءه هو لا غير، فيكون أعظم وأعلى منهما، وذلك لأنه أعظم العمل، وأعظم العمل لا يستحق إلا أعظم الأجر وليس هناك أعظم منه [تعالى]، فلا يكون جزاءه إلا هو. فأفهم جيداً))[(١)].

وينقل ﵀ عن بعض أهل المعرفة قوله بشأن بيان أسرار الصوم:

((وأما درجات أسرار الصوم فثلاثة: أدناها أن يقتصر على الكف عن المفطرات ولا يكف جوارحَهُ عن المكاره وذلك صوم العموم وهو قناعة بالإسم.

الثانية: أن يضيفَ إليه كفَّ الجوارح فيحفظ اللسان عن الغيبة والعين عن النظر بريبة وكذا سائر الأعضاء، وذلك صوم الخواص من أهل الله.

وأما الثالثة: فهو أن يضيف إليهما صيانة القلب عن الفكر والوساوس ويجعله مقصوراً على ذكر الله تعالى ومشاهدته في مظاهره وذلك صوم خصوص الخصوص وهو الكمال المقصود بالذات))[(٢)].

والآن ينبغي لك ـ يا عزيزي ـ التدبر فيما تقدم بيانه بشأن مراتب الصوم ومعنى العبادة والعبودية لكي تعرف طبيعة العلاقة

---

(١) أسرار الشريعة، السيد حيدر الآملي، ص٢١١ ـ ٢١٣.

(٢) المصدر السابق، ص٢١٠.

بين الصوم والعبادة، فإذا أحسنت التدبر في الحقائق المتقدمة وأدركتها وفهمتها بالصورة المطلوبة، حينئذٍ ستصدق حقاً بأن الصوم باب العبادة وباب عبودية الله تبارك وتعالى؛ وستقر بأن الصوم الحقيقي يكسر جميع الأغلال والقيود ومختلف أشكال التعلق بما سوى الله، ويطهر وجود الإنسان منها ويملأه ـ بدلاً عنها ـ بعبودية الله تبارك وتعالى.

ولكن؛ يا حسرة وألف حسرة على حالنا نحن، فقد حبسنا نفوسنا في المرتبة الدانية للصوم، ونسينا بالكامل مراتبه السامية أو أننا جاهلون بها بالمرة، ولذلك لا يكون نصيبنا من الصوم سوى الجوع والعطش.

إن الصوم الذي لا يثمر تحقق العبودية ولا يؤدي إليها، لا يمكن أن يوصل إلى منزلة الربوبية التي هي كنه العبودية، والصائم الذي لا يحس بهذا المعنى ولا يدرك هذا المقام لن يتيسر له الورود إلى محفل ضيافة الله ولن يحظى بعطايا هذه الضيافة.

نسألك اللهم: بحرمة ضيوفك الحقيقيين وعبادك الصالحين، وبحرمة الصائمين الحقيقيين ومقربي حضرتك المخلصين، أن تطهرنا من كل رجس ومن الخبائث التي لوثنا بها أنفسنا بأيدبنا؛ وأن تأخذ أنت بأيدنا وتدخلنا مضيفك المبارك، فنحن خجلون من الحضور في

تلـك الحضـرة القدسـية لمـا نحـن فـيه من التلوث بالرجس والإبتلاء بالمعاصي.

الـلهم طهـرنا مـن كـل رجـس فـنحن خجلون من النبي الأكرم وأوصـيائه الطاهـرين عليهم السلام ونحـن غـرباء في محفـل يكـون فـيه هؤلاء الطاهـرون ضـيوفك، ونحن عاطلون في مقام يكون فيه هؤلاء الأعاظم نشيطين بالعمل لك.

الفصل التاسع
تحقيق في معنى
فتح أبواب الجنة وإغلاق أبواب النيران وغل الشياطين

تقدم القول أن في الخطبة الشعبانية التي ألقاها رسول الله ﷺ في استقبال شهر رمضان المبارك، قضيتين يحتاج فهمهما إلى المزيد من البحث والتدبر، الأولى قضية ضيافة الله وقد أتممنا البحث بشأنها ورجاءنا أن لا تنسى الحقائق المستفادة منه. أما القضية الثانية فهي ترتبط بتصريحه ﷺ في هذه الخطبة بأن:

أبواب الجنة مفتحة

وأبواب النيران مغلقة

والشياطين مغلولة

وهنا ينبغي التدبر لمعرفة مراد رسول الله ﷺ فهل المقصود هو المعنى المتبادر للوهلة الأولى؛ أي أن الجنة هي مثل حدائق وقصور الدنيا ولها أبواب كثيرة مغلقة قبل شهر رمضان ثم يأمر الله تبارك وتعالى بفتحها فور حلول شهره المبارك لعباده لكي يدخلوا الجنة عبرها؟

وهـل أن جهـنم مـثل سجون التعذيب في الدنيا والتي تكون لها ابـواب ضخمة، فتكون أبواب جهنم مفتوحة قبل شهر رمضان ولكن بمجرد حلوله تُغلق ـ بأمر الله ـ فإذا أراد شخص دخلولها مثلاً وجدها مغلقة؟

وهـل أن الشـياطين ـ في هذه الدنيا ـ هم موجودات مستقلة عنا تكـون لهـم حرية العمل والتحرك حيثما شاءوا قبل شهر رمضان فإذا حل اعتقلوهم وسجنوهم؟

هـل أن الأمـر ـ في الواقـع ـ هو هذا أم أنه أسمى بكثير من هذه التصـورات والـتوهمات الأولـية؟ لا مـناص لـنا ـ للإجابة على هذه الاسئلة ـ من القيام بأمرين:

أ: التذكير بما قلناه سابقاً بشأن، حقيقة الجنة والنار.

ب: البحث بصورة تحقيقية عن المعنى المراد من مفردة ((الباب)).

بالنسبة للأمر الأول فإن خلاصة ما قلناه بشأن حقيقة الجنة والنار هي إنهما ظهور لأعمال الإنسان لا غير، فعذاب جهنم وآلامها ليست سوى عودة لأعماله السيئة عليه، كما أن نعيم الجنة هو رجوع أعماله الحسـنة إلـيه، وبعـبارة أدق فـإن الجـنة والـنار ليسـتا منفصـلتين عن الإنسـان كمـا أنـه لـيس منفصـلاً عنهما بحالٍ من الأحوال، فإذا كان غارقـاً في طاعـة الله وعبوديـته فهو بحد ذاته جنة، وإذا كان غارقاً ـ لا

سمح الله ـ بالمعصية والذنوب فهو بحد ذاته جهنم.

وبعد عرض هذه الخلاصة ننتقل إلى بيان حقيقة معنى ((الباب))، ولكن ينبغي قبل الدخول في ذلك التنبيه إلى أمور لها تأثير عميق في اتضاح هذه الحقيقة:

أ: إن لكل معنى من المعاني حقيقة وصورة ظاهرية، فالحقيقة هي بمنزلة روحه، والصورة بمنزلة شكله وظاهره، وللكثير من المعاني حقيقة واحدة وصور متعددة، فمثلاً نجد لمفردة ((الميزان)) معنى حقيقياً واحداً هو: الشيء الذي توزن به الأشياء، ولكن لهذه الحقيقة صوراً متعددة بعضها مادية وبعضها الآخر معنوية، فالميزان المعروف ذو الكفتين والقبان والساعة والإسطرلاب والفرجار والشاقول والمسطرة، وعلم العروض وعلم المنطق والعقل وغيرها كلها تمثل حقيقة معنى الميزان وإن اختلفت في صورها بفروق كثيرة مشهودة وغير مشهودة؛ إذ أن لكل منها ـ بحد ذاته ـ حقيقة الشيء الذي توزن به الأشياء وتمييز السليم منها عن المنحرف.

ب: لا شك في وجود معنى لكل لفظ، ولكن يجب التنبيه إلى أن الألفاظ قد وضعت لبيان حقائق المعاني لا صورها، وعلة ما يلاحظ من استخدام الألفاظ لبيان صور المعاني يرجع إلى أن هذه الصور حاملة لحقائق المعاني وقد امتزجت بها إلى درجة صارت تعد شيئاً

واحداً؛ ولذلك يكون استعمال اللفظ في جميع الصور المتعددة للحقيقة الواحدة استعمالاً في معناه الحقيقي وليس استعمالاً للفظ في معناه المجازي، ولذلك لا ينبغي حصر معنى اللفظ في أحد صور حقيقة معناه الخاصة وعزله عن الصور الأخرى لهذه الحقيقة وذلك لأن الصور الأخرى تحمل أيضاً حقيقة المعنى التي تحملها تلك الصورة الخاصة.

أجل، هذا الكلام لا يعني لزوم التغافل عن المورد الخاص لاستعمال اللفظ، بل على العكس يجب الاستناد إلى معرفة المورد الخاص لاستعمال اللفظ لتعيين الصورة المناسبة له واجتناب إدخال الصور الأخرى لحقيقة المعنى واجتناب تطبيق أحكامها على المورد الخاص لعدم تناسبها معه.

من هنا يتضح أن عدم معرفة المورد الخاص لاستعمال اللفظ وتطبيق أحكام الصور الأخرى غير المناسبة له عليه هو عمل خاطئ ومحكوم بالإفراط مثلما أن حصر حقيقة المعنى في إحدى صورها هو أيضاً عمل خاطئ ومحكوم بالتفريط، وكلاهما خروج عن حد الاعتدال وانحراف عن الصراط المستقيم.

ج: الأنبياء والأولياء عليهم السلام مأمورون بمخاطبة الناس بما تدركه عقولهم ويستطيعون فهمه كما هو المستفاد من قول رسول الإسلام

الأعظم ﷺ: ((إنا معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم))[(١)].

هذا من جهة، ومن جهة ثانية، نعلم أن الناس ليسوا في مستوى واحد من الفهم والإدراك، بل لهم درجات ومراتب متباينة، فبعضهم لا يتجاوزون حد الوهم والخيال، وبعضهم يعرجون إلى عالم العقل وسماء الحقائق، وبعضهم حيارى بين الوهم والعقل، ولذلك فإن أولئك الأعاظم الملكوتيين لم يكونوا يتمكنون من بيان حقائق المعاني للناس بالصورة التي يدركونها هم عليهم السلام ولذلك قال الإمام الصادق عليه السلام: ((ما كلم رسول الله ﷺ العباد بكنه عقله قط))[(٢)].

ومن الطريف أن بعض أهل المعرفة قد شبهوا حال الأنبياء عليهم السلام بحال الأبكم الذي رأى في منامه رؤيا وهو يريد إخبار جماعة من الصُم بتفصيلات ما رأى! فلا هو يستطيع بيان ما رأى ولا الآخرون يستطيعون فهم ذلك، وهذا هو حال الأنبياء مع الناس، فلا هم عليهم السلام يستطيعون بيان الحقائق طبق الصورة التي يدركونها هم؛ ولا الناس بالمستوى الذي يمكنهم من فهم كلام الأنبياء بالصورة التي يريدونها

---

(١) أصول الكافي، ثقة الإسلام الكليني، ج١، ص١٨.

(٢) أصول الكافي، ج١، ص١٨.

هـم عليهم السلام، ولذلـك فـلم يكن من سبيل أمام الأنبياء عليهم السلام إلا عرض الحقائق العقلية التي يدركونها في قالب الأمور المحسوسة وتجسيدها لهم بالصـورة الـتي تكون مفيدة للجميع بحيث يحظى كل شخص بنصيب منها يتناسب مع درجة قوته الإدراكية.

ومما لا شـك فـيه أن الظاهـرين الذين اكتفوا من حقائق الأمور بقشـورها؛ لا يفهمـون مـن كـلام الأنبياء والأولياء عليهم السلام سوى المعاني الظاهرية التي هي بمنزلة القشور مقارنة بحقائق المعاني، وعلى العكس حـال الذين تجاوزوا الظواهر وتعمقوا في العلم بقدم راسخة، فهؤلاء يـتخذون ظواهر الأمور سلماً معرفياً يعرجون بواسطته إلى سماء أرواح المعاني وبذلك يصلون إلى حقائقها.

في سـورة العنكـبوت يشبه الحق تبارك وتعالى حال الذين اتخذوا أولـياء مـن دونـه بحـال العنكبوت الذي يتحصن ببيت هو من أوهن البيوت، ثم يقول عز من قائل:

﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاس وَمَا يَعْقِلُهَا إِلا الْعَالِمُونَ﴾[١].

والمسـتفاد مـن هذا الآية الكريمة هو أن من غير المتيسر للجميع تجـاوز ظواهر الأمور وإدراك بواطنها، بل إن أكثر الناس يتوقفون عند

---

(١) العنكبوت: ٤٣.

حدود الظواهر ويجهلون ببواطنها: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾[١].

پـر دلـى بـايد كـه بـاز غم كشد   رخـش بـايد تـا تن رستم كشد[٢]

يقول الشيخ الرئيس أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا ـ رضوان الله تعالى عليه ـ في ((الرسالة المعراجية)): ((من شرائط الأنبياء هو تعبئة كل حقيقة عقلية يدركونها في قالب المحسوس ويجسدونها في شكل كلام، لكي تتابع الأمة هذا التصوير المحسوس، فيكون ما يحظى به هم عليهم السلام المعقول الذي يكون محسوساً ومجسماً للأمة، فيعززون الوعد والآمال ويزيدون الظنون الحسنة، لكي تصل الشروط إلى الكمال ولكي لا تنهار ولا تختل قاعدة الشرع وناموسه ولا يضطرب أساس العبودية؛ ولكي لا يبقى مراد النبي مخفياً، بل إذا وصل إلى عاقل أدركه بعقله وعرف أن كل ما قاله النبي هي رموز مليئة بالمعقول؛ أما إذا وصل إلى غافل نظر إلى ظاهر الكلام وحرص وأنس

---

(١) الروم: ٧.

(٢) ترجمة نثرية لبيت شعر بالفارسية، ورستم هو بطل أسطوري إيراني و((رخش)) هو إسم فرسه. تحمل الغم يحتاج إلى قلب قوي؛ مثلما أن تحمل رستم لا يطيقه إلا ((رخش)).

بالجسم المحسوس وبقي في دائرة الخيال ولم يتجاوز طوق الوهم، يعبد ما لا يعلم ويسمع ما لا يعي ((الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون)). من هنا قال أشرف البشر وأعز الأنبياء وخاتم الرسل ﷺ لمعدن الحكمة وفلك الحقيقة وخزينة العقل أمير المؤمنين عليه السلام:

((يا علي! إذا رأيت الناس يتقربون إلى خالقهم بأنواع البر، تقرب إليه بأنواع العقل تسبقهم)).

ومثل هذا الخطاب لا يصح توجيهه إلا لمثل هذا العظيم الذي كان بين الخلق مثل المعقول وسط المحسوس. لقد خاطبه: يا علي، إذا كان الناس يتحملون المشاق في كثرة العبادة، فتحمل أنت المشاق في إدراك المعقول لكي تسبق الجميع. ولأنه أدرك ـ بعين البصيرة العقلية ـ الأسرار اطّلع على جميع الحقائق؛ ومعلوم أنّ للرؤية شأناً يخصّها حكماً واحداً؛ لذلك قال: ((لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً))[1].

والآن وبعد أن عرفت الأصول المذكورة، فقد آن الأوان لكي تتعرف على حقيقة معنى ((الباب))، لكي تقترب شيئاً فشيئاً من فهم مراد رسول الله ﷺ من قوله:

((أيها الناس إن أبواب الجنة في هذا الشهر مفتحة، فسلوا ربكم أن لا يغلقها عليكم.

---

(١) الرسالة المعراجية، الحكيم أبو علي بن سينا، ص١٤.

وأبواب النيران مغلقة فسلوا ربكم أن لا يفتحها عليكم.

والشياطين مغلولة فسلوا ربكم أن لا يسلطها عليكم)).

بناءً على ما تقدم، نقول: إن روح وحقيقة معنى ((الباب)) الذي وضع هذا اللفظ له عبارة عن مطلق ما يوصل إلى المقصود فلا يمكن الحصول على المطلوب إلا به.

ومما لا شك فيه أن لحقيقة هذا المعنى صوراً وأشكالاً متعددة وكل منها مخصوص بمورد معين، وله أحكام وخصوصيات خاصة، ومن الضروري معرفة المورد والصورة المناسبة له لمعرفة الأحكام والخصوصيات التي تنطبق عليه.

وأشهر صور ومظاهر هذه الحقيقة هي ((الباب)) المعروفة عند عموم الناس والتي اعتادوا نصبها على ممر الدخول إلى المباني والقصور والحدائق والبساتين والبيوت وسائر الأبنية المادية المعروفة؛ وإلى هذا المصداق تنصرف أكثر الأذهان عند سماعها للفظ الباب بسبب رواج واشتهار هذا المعنى، ولكن لا ينبغي الغفلة عن حقيقة أن هذا المعنى هو مجرد مصداق من مصاديق حقيقة معنى الباب وليس مصداقها الوحيد، لذلك لا ينبغي حمل لفظ الباب في جميع الموارد على هذا المصداق المألوف بل ينبغي معرفة أن باب كل شيءٍ هي بالمعنى المناسب له، فلا يمكن تعميم الخصوصيات الخاصة بأحد

المصاديق على جميع المصاديق، فمثلاً لمصاديق الباب المستخدمة في المباني المادية خصوصيات وأحكام خاصة بها لا يمكن تعميمها على مصاديق ((الباب)) المستخدمة في الأمور المعنوية مثل المحبة والصداقة أو العداوة والبغضاء، بل إن أحكام وخصوصيات الباب في كل مورد تكون متناسبة معه، فمثلاً ((باب)) العلم تكون خصوصياتها وأحكامها متناسبة مع العلم والتعلم، وكذلك الحال مع الموارد الأخرى، لذلك يجب أولاً معرفة المورد الذي تتعلق به الباب كمقدمة لمعرفة الصورة المناسبة له من صور حقيقة معنى الباب وبالتالي معرفة خصوصيات وأحكام هذه الصورة.

من هنا؛ فإننا عندما نسمع قول رسول الله ﷺ بشأن علي بن أبي طالب عليه السلام: ((أنا مدينة العلم وعلي بابها))[1]؛ نصدق فوراً قوله ﷺ دون أن نحمله على المجاز أو نفترض ـ والعياذ بالله ـ هيئة للوصي عليه السلام تشبه هيئة الابواب المتعارفة، بل نقول: إن مراده ﷺ من هذا الكلام هو: أن على من يريد الانتفاع من علومي، فعليه أن يتوجه أولاً إلى الإمام علي عليه السلام وعن طريقه يحصل على نصيبه من علومي. كذلك الحال مع وصف الإمام الكاظم عليه السلام بأنه ((باب

(١) بحار الأنوار، ج٤٠، ص٢٠١.

الحوائج))، فعندما نسمع هذا الوصف لا نحمل لفظ ((الباب)) هنا على المعنى المجازي ولا على المصاديق المألوفة بل نقول: أن المقصود هو أن على من يريد أن يقضي الله تبارك وتعالى حوائجه أن يتوسل إليه بوليه الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام لكي يصل إلى مقصوده بتوسطه عليه السلام. وكذلك الحال مع الموارد الأخرى التي نشير هنا إلى بعض نماذجها:

أ: عن عبد الرحمن بن أبي عبد الله قال سمعت أبا عبد الله [الإمام الصادق] عليه السلام يقول: ((إن رسول الله صلى الله عليه وآله علم علياً باباً يفتح له ألف باب، كل باب يُفتح له الف باب))[1].

ب: عن أمير المؤمنين عليه السلام قال:

((أنا حجة الله وأنا خليفة الله وأنا صراط الله وأنا باب الله...))[2].

ج: عن أبي حمزة، قال: سمعت أبا جعفر [الإمام الباقر] عليه السلام يقول:

((إن علياً عليه السلام باب فتحه الله فمن دخله كان مؤمناً ومن خرج منه كان كافراً))[3].

---

(١) المصدر السابق، ص١٣٦.

(٢) المصدر السابق، ج٣٩، ص٢٣٥.

(٣) أصول الكافي، ج١، ص٣٦٣.

د: قال رسول الله ﷺ:

((لكل شيءٍ باب وباب العبادة الصوم))[1].

هـ: قال علي بن أبي طالب عليه السلام:

((... فإن الجهاد باب من أبواب الجنة فتحه الله لخاصة أوليائه))[2].

فإذا أمعنت النظر في هذه النماذج لوجدت ـ بكل وضوح ـ أن روح وحقيقة معنى لفظ الباب ـ وهو مطلق ما يوصل إلى المقصود ـ موجودة فيها جميعاً ولكن في صور وأشكال متعددة؛ ولصدقت أيضاً بأن وحدة الحقيقة المذكورة لا تنافي تكثر وتباين الصور المختلفة؛ كما أن كثرة وتباين الصور المختلفة لا تضر بوحدة تلك الحقيقة.

مصاديق أبواب الجنة والنار

والآن وبعد أن عرفت حقيقة معنى لفظ ((الباب))؛ وكذلك بعد أن عرفت من قبل طبيعة علاقة الجنة والنار بوجود الإنسان وأعماله؛ نقول: إذا كنت قد أدركت ما قلناه لصدقت ـ دون شك ـ بأن المراد من ((أبواب الجنة)) مطلق الأمور التي تعبد الطريق للقيام بالأعمال

---

(١) المحجة البيضاء، ج٢، ص١٢٢.

(٢) نهج البلاغة، شرح محمد عبده، الخطبة ٢٧.

الصالحة والزكية وتورث صدور محاسن الفعال من الإنسان؛ ولحكمت أيضاً بأن المراد من ((أبواب النيران)) مطلق الأمور التي تفتح الطريق لارتكاب الموبقات والأعمال القبيحة وتورث صدور قبائح التصرفات من الإنسان.

وإذا سألت: وما هي الأمور التي تعبد الطريق للقيام بالصالحات وبالتالي تكون أبواباً للجنة؟ وما هي الأمور التي تفتح طريق ارتكاب القبائح وتكون أبواباً للنيران؟

نقول ـ في مقام الجواب ـ: إن الإنسان يقوم بجميع أعماله ـ الحسنة منها والسيئة ـ بواسطة القوى التي أودعها الله تبارك وتعالى فيه وهي الحواس الظاهرية الخمس: اللامسة، الباصرة، السامعة، الذائقة والشامة، والحواس الباطنية الثلاث: المتخيلة، الواهمة والعاقلة؛ من هنا يمكن القول بأن الحواس الظاهرية الخمس بإضافة القوتين المتخيلة والواهمة هي الأمور التي تفتح طريق ارتكاب القبائح والموبقات إذا انفصلت عن القوة العاقلة ولم تكن مطيعة لها، وبذلك تصبح ((أبواب جهنم السبعة))؛ لكنها نفسها إذا انضمت للقوى العاقلة وكانت مطيعة لها تصير الأمور الممهدة للقيام بصالحات الأعمال وتشكل بذلك ((أبواب الجنة الثمانية)). ولعل هذا هو سر ما ورد في بعض النصوص الدينية من أن أبواب الجنة ثمانية وأبواب النار سبعة، يقول تعالى في سورة الحجر:

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾[١].

وروي عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال:

((احسنوا الظن بالله وأعلموا أن للجنة ثمانية أبواب))[٢].

يقول المحقق المدقق الفريد الخواجة نصير الدين الطوسي ـ رضوان الله تعالى عليه ـ في الفصل (١٤) من رسالته (تذكره آغاز وأنجام) ضمن إشارته إلى أبواب الجنة والنار:

((المشاعر الحيوانية التي تدرك بها أجزاء عالم الملك سبع، خمس منها ظاهرة هي الحواس الخمس المعروفة، واثنتان باطنيتان وهما قوتا الخيال والوهم فالأولى هو القوة المدركة للصور والثانية القوة المدركة للمعاني، أما القوى المفكرة والحافظة والذاكرة فليست من الحواس بل من أعوانها.

وكل واحدة من هذه الحواس تكون سبباً لهلاك النفس التي تتبع الهوى وتسخر العقل في متابعته: **﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾**[٣]،

---

(١) الحجر: ٤٣ ـ ٤٤.

(٢) بحار الأنوار، المجلسي، ج٨، ص١٣١.

(٣) الفرقان: ٤٣.

﴿وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ﴾[1]، إلى أن يصير حاله حال: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾[2].

ولذلك فإن كل واحدة من هذه المشاعر بمثابة باب من أبواب جهنم: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾[3].

أما إذا كان العقل ـ وهو القوة المدركة لعالم الملكوت ورئيس جميع تلك المشاعر ـ رئيساً مطاعاً في مملكة النفس يردعها عن اتباع هواها لكي يقدم لكل واحدة من تلك المشاعر آية من الكتاب الإلهي من عالم ((أمري)) يتعلق إدراكه بتلك الحاسة الخاصة، ولكي يتلقى العقل استماع آيات الكلام الإلهي من عالم ((خلقي))، أي على العكس من حال القوم الذين [لسانهم هو]: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[4]؛ هذه المشاعر الثمانية ـ أي العقل مع الحواس المدركة ـ السبع المذكورة ـ بمنزلة أبواب الجنة الثمانية: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾[5].

---

(١) الجاثية: ٢٣.

(٢) النازعات: ٣٧ ـ ٣٩.

(٣) الحجر: ٤٤.

(٤) الملك: ١٠.

(٥) النازعات: ٤١.

أجل ينبغي التأكيد هنا على أن أبواب الجنة لا تنحصر في الأمور المشار إليها، بل أنها تشمل ـ كما أسلفنا ـ جميع الأمور التي تمهد الطريق للقيام بصالحات الأعمال؛ كما أن أبواب النار تشمل جميع الأمور التي تفتح طريق ارتكاب السيئات؛ أما علة الإشارة والتأكيد على الحواس الظاهرية الخمس والحواس الباطنية الثلاث من بين جميع تلك الأمور فهي ترجع إلى أن دورها أوضح في هذا المجال دون أن يعني ذلك حصر هذا الدور بها بل يمكن اعتبار الأمور الأخرى من مصاديق أبواب الجنة أو أبواب جهنم. وهذا هو سر اختلاف النصوص الدينية في ذكر عدد هذه الأبواب فهي جميعاً ـ إلى جانب اختلافها ـ صادقة ومطابقة للواقع لأن كلاً منها تنظر للأمر من زاوية معينة.

وكمثال على ذلك نقول إن من الأمور التي تمهد الطريق للقيام بالأعمال الصالحة أو السقوط في حضيض الأعمال الشريرة هو الإمام والقائد، فإذا كانت زعامة الأمة بيد إمام صالح مقتدر فإنها تعبد طريق القيام بالصالحات أما إذا كانت بيد إمام طالح ففي هذه الحالة تمهد الطريق لارتكاب الموبقات، ولذلك فإن الإمام الصالح هو إمام النور وباب من أبواب الجنة، أما الإمام الطالح فهو إمام الظلمة وباب من أبواب جهنم، يقول رسول الله ﷺ عن الإمام الحسين بن علي عليهما السلام:

((ألا وإن الحسين باب من أبواب الجنة من عانده حرم الله عليه ريحُ الجنة))[1].

ويقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام:

((إن للجنة إحدى وسبعين بابا يدخل من سبعين منها شيعتي وأهل بيتي ومن باب واحد سائر الناس))[2].

وعن الإمام الصادق عليه السلام ضمن حديث ذكر فيه أن أبواب جهنم سبعة نسبها إلى سبعة من أئمة الجور ثم قال: ((فهم أبواب لمن تبعهم))[3].

والقضية الأخيرة التي يلزم التأكيد عليها في هذا القسم من البحث هي أن لأبواب الجنة والنار صوراً في كل عالم تناسب خصوصياته، فصورها الظاهرية والدنيوية هي التي تقدمت الإشارة إليها آنفاً كمصاديق لأبواب الجنة والنار، أما صورها الباطنية والأخروية فهي تناسب عالم الآخرة وتظهر فيه.

والآن يا عزيزي؛ وبعد أن عرفت حقيقة هذه الأبواب وما تقدم بشأنها عليك أن تعلم أنك إذا فتحت عينك لرؤية ما يحرم شرعاً

---

(١) سفينة البحار، الشيخ عباس القمي، ج١، ص١٠٨.

(٢) بحار الأنوار، ج٨، ص١٣٩.

(٣) المصدر السابق، ص٣٠١.

النظر إليه فإنما تفتح على نفسك باباً من أبواب جهنم، وإذا فتحت سمعك لسماع اللغو والباطل من القول فإنما فتحت ـ في الحقيقة ـ على نفسك باباً من أبواب جهنم، وإذا فتحت فمك للتفوه باللغو والكلام بالباطل فإنما فتحت في الواقع على نفسك باباً من أبواب النيران.

وعلى العكس؛ إذا فتحت عينك لرؤية المناظر المشروعة المحللة أو لتمييز الحق من الباطل، فإنك في الواقع تفتح أمامك باباً من أبواب الجنة، وإذا فتحت سمعك للإصغاء للحق؛ فإنك تفتح بذلك أمام نفسك باباً من أبواب الجنان وكذلك الحال لو فتحت فمك لبيان الحق.

وعليك أيضاً ـ يا عزيزي ـ أن تعلم أنك إذا رضيت بولاية إمام النور، فقد فتحت بذلك لنفسك باباً من أبواب الجنة، أما إذا استسلمت لولاية إمام النار والظلمة، فإنك بذلك تفتح على نفسك باباً من أبواب جهنم. والأمر نفسه يصدق على بقية المصاديق.

وينبغي لك أيضاً ـ يا عزيزي ـ أن تعلم أن مراد رسول الله ﷺ من قوله بأن أبواب الجنة مفتحة وابواب النيران مغلقة والشياطين مغلولة في شهر رمضان المبارك؛ هو أن الله تبارك وتعالى قد عَبَّد طريق القيام بصالحات الأعمال وسد طريق ارتكاب سيئات الأعمال وقيّد

الغرائز النفسانية والأهواء الشيطانية من خلال الآداب والمناسك التي شرعها في شهر رمضان المبارك.

كما ينبغي لك أن تعلم أن مرادهُ ﷺ من دعوته الناس أن يدعوا الله أن لا يغلق عليهم أبواب الجنان التي فتحها لهم وأن لا يفتح عليهم أبواب النيران المغلقة وأن لا يسلط عليهم الشياطين المغلولة في هذا الشهر المبارك؛ هو أن تطلبوا منه تبارك وتعالى دوام هذه التوفيقات التي حباهم بها في شهر رمضان والتي تستندون إليها فيه للقيام بصالحات الأعمال أو الإعراض عن الذنوب وحبس الأهواء النفسانية والإغراءات الشيطانية بالالتزام بالأوامر والحدود الإلهية؛ أي أن تسألوا الله جل جلاله استمرار هذه النعم بعد شهر رمضان أيضاً؛ فلا تزول الخيرات والبركات التي جاء بها إثر انقضائِهِ فيضعف بعده اهتمامكم المشهود فيه بإقامة العبادات وترك المحرمات والسيطرة على الأهواء والشهوات النفسانية.

قلت لأحد الأصدقاء في آخر شهر رمضان من إحدى السنين: في هذه الليلة تُغلقُ أبواب الجنة في وجوه الكثيرين وتفتح ـ بالمقابل ـ عليهم أبواب النيران!

سألني صاحبي: وكيف ذلك؟

قلت: انتظر إلى أوان أذان الفجر عندها ستعرف الجواب.

انقضت تلك الليلة، وحل موعد أذان الفجر، ذهبت شطر المسجد وفي الطريق؛ رأيت ذلك الصديق فقلت له ـ استئنافاً لحديث الليلة الماضية ـ: أنظر جيداً إلى هذه الغرف، إن مصابيحها مطفأة، إن ساكنيها نائمون غافلون عن حلول الفجر وعن الصلاة أول وقتها! هذا هو حالهم اليوم أما في الليالي السابقة فقد كانت مصابيح هذه الغرف جميعاً منارة وأصحابها كانوا مستيقظين ما بين تالٍ للقرآن، أو تال لأدعية السحر؛ أو مقيم لنافلة الليل أو منهمك بالوضوء استعداداً للصلاة أو سائر في طريقه إلى المسجد؛ الجميع كانوا في حركة عبادية نشطة وكانت لهم أعمال وحالات فتحوا بها لأنفسهم أبواب الجنان، أما الليلة واليوم فحالهم ما تراه الآن وما ستراه لاحقاً، فلا من أثر لتلك الحركة العبادية النشطة ولا لتلك الأعمال والحالات المعنوية. إن ترك هذه الأعمال وفقدان هذه الحالات يعني في الواقع إغلاق أبواب الجنة؛ أما الاستمرار في إقامتها وحفظ حالاتها المعنوية فهو يعني الإبقاء على هذه الأبواب مفتحة.

وعلى هذا المنوال فقس أمر فتح أو اغلاق أبواب جهنم. فإذا هَمَّ الصائم في أيام شهر رمضان بالكذب أو الغيبة أو التعرض لنواميس الناس بنظرة شهوية محرمة، تدارك حاله وقال لنفسه: أنا صائم ولا ينبغي لي القيام بمثل هذه القبائح، فيحفظ سمعه وبصره وفمه وسائر

جوارحه عن الذنوب وبذلك يغلق أبواب النيران ويحفظ نفسه منها ويقيد أهواء النفس وشهواتها وإغراءات الشياطين ووساوسهم؛ ولكن ومنذ اليوم وبعد أن انقضى شهر رمضان فإن الكثيرين من هؤلاء الناس الذين كانوا يراقبون جوارحهم أيام صومهم سيطلقون العنان لجوارحهم بصورة تدريجية ويزيحوا عنها القيود وبذلك يفتحون على أنفسهم أبواب النيران مرة أخرى، ويحررون شياطين الأهواء والشهوات من محابسها ويسلطونها على أنفسهم.

إن فتح السمع والبصر واللسان على ارتكاب المعاصي يعني في الواقع فتح أبواب النيران على النفس، كما أن إطلاق عنان الأهواء والشهوات لكي تتجاوز حدود الله يعني إطلاق سراح الشياطين وإخراجها من محابسها لكي تتسلط على الإنسان، في حين أن حفظ الجوارح عن ارتكاب المعاصي يعني اغلاق أبواب جهنم، وتقييد الغرائز والشهوات يعني حبس الشياطين، واستمرار ذلك يعني استمرار اغلاق أبواب النيران وحبس الشياطين.

شهر الاصلاح وتزكية النفس

واستناداً إلى ما تقدم نقول:

يا عزيزي! إن كنت تريد السيطرة ـ باقتدار كامل ـ على الغرائز

والأهواء والشهوات والسير على صراط التقوى بخطوات ثابتة فعليك أن تعلم ان شهر رمضان المبارك فرصة مناسبة للغاية لتحقيق ذلك فلا ينبغي لك أن تخسرها وتبيعها مجاناً. كما ينبغي لك أن تعلم أنك إذا عجزت عن اصلاح نفسك في هذا الشهر المبارك ـ وهو شهر الإصلاح وتزكية النفس ـ فإنك ستعجز عن القيام بذلك في غيره من الشهور ولا شك. فإن المصاب بضعف الأعصاب مثلاً إذا لم يستطع أو لم يرغب في النوم والاستراحة مع كل ما ألم به في محيط هادئ تتوفر فيه جميع الشروط والأوضاع الموائمة للاستراحة فإنه سيعجز ولا شك ومن باب أولى عن النوم والاستراحة في محيط صاخب يفتقد للأوضاع المناسبة للنوم والاستراحة وتتوفر جميع الأوضاع المضادة لذلك.

لقد جعل الله تبارك وتعالى شهر رمضان المبارك موسماً للاصلاح وتزكية النفس، وأعد لهم جميع العوامل المناسبة لذلك وأزال جميع العقبات الصادة عنه لكي يتمكن المؤمنون والمسلمون من التفرغ لنفوسهم واصلاحها؛ فإذا لم نعرف ـ أنا وأنت ـ قدر هذا الموسم الإلهي والفرصة المباركة، ولم ننتفع من هذه العطية الإلهية بالمستوى المطلوب، فإننا سنعجز ـ ولا شك ـ عن التفرغ لاصلاح نفوسنا وتزكيتها في الشهور الأخرى أو أننا سنتحمل مصاعب ومشاكل كثيرة على هذا الطريق.

إذن، فعليك ـ يا أخي العزيز ـ أن تتحلى باليقظة؛ اجتهد يا صديقي في استثمار هذه الفرص المباركة بأقصى حد ممكن؛ فإن الأمر ـ والله ـ لا يتحمل التأخير والتسويف وطول الأمل، وإذا كنت ترجو الاصلاح في المستقبل فاعلم أن المستقبل مجهول، فلا تعقد أمالك على شيءٍ مجهول لأن في ذلك الخسران المبين، حذار من أن تفتح عينك يوماً فلا تجد في جعبتك ـ لا سمح الله ـ سوى صحيفة سوداء تحيطها الحسرات وظلمات الضياع.

هواهای پلید وزشت وپستت — نمی‌دانی چه داده به دستت

شدی هم کاسه با ابلیس ملعون — به مکرش هر دو دست از پشت بستت

چو شیطان در وجودت خانه کرده — به حکم وی بود خیز ونشستت

زدوده از دلت یاد خدا را — ربوده از کفت عهد ألستت

تو کی پیروز بودی بر هر یمن — که امروزت بود روز شکستت

بغیر از إنّی ومنّی نداری — درون سینه وآن نفس مستت

گذشت از عمر توسی یا چهل سال — همین سان بگذرد پنجاه وشستت

(سحر) بیدار شو از خواب غفلت — که نرود فرصت باقی زدستت

مشو غافل زحق تا می توانی — کزو گردیده ظاهر، بود وهستت[١]

الفصل العاشر

آثار الصلاة في التورع عن الفحشاء والمنكر

تقدم في الفصول السابقة بأن على المبتلى بضعف الإرادة؛ والذي يقع في ارتكاب الذنوب على الرغم من إيمانه بالمبدأ والمعاد وتبعات الأعمال، وبالرغم من عدم غفلته عنها؛ عليه قبل الكل أن يقوي ارادته ـ إذا كان جاداً صادقاً في السعي لاصلاح نفسه وتزكيتها ـ؛ ووسيلته لتقوية إرادته هو القيام ببعض الرياضات الشرعية؛ ثم يعمد إلى مجاهدة الأهواء النفسية والإغراءات والوساوس الشيطانية والصمود بوجهها بإرادة قوية.

كما تقدم التأكيد على أن الصوم هو أفضل الرياضات الشرعية وأن له تأثيراً كبيراً في تقوية الإرادة، لذا يجدر بالساعي إلى تقوية إرادته أن يتمسك بعرى هذه الرياضة الشرعية مع العمل بآدابها وشروطها.

أما الآن، فنتطرق للحديث عن عامل آخر من العوامل المؤثرة في تقوية الإرادة له آثار قوية للغاية في هذا المجال وفي إعانة الإنسان على

التغلب على الأهواء والشهوات النفسانية؛ وهذا العامل هو: إقامة الصلاة. فإن مما لا شك فيه إن نجاح الإنسان في إقامة هذه العبادة مع الالتزام بشروطها وآدابها يعينه في ترك الكثير من الذنوب والابتعاد تدريجياً عنها بالكامل بعون الله، قال الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز:

﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ﴾[٢].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ﴾[٣].

ومن الضروري هنا التنبيه إلى حقيقة أن المصلين ليسوا في مرتبة واحدة فيما يرتبط بدرجة استفادتهم من الصلاة. إذ أن للصلاة ـ مثلما هو الحال في الكثير من الأشياء ـ ظاهراً وباطناً، فإذا قنع المصلي منها بظاهرها وغفل عن باطنها فإن انتفاعه منها سيكون محدوداً للغاية، على العكس من المصلي الذي يعبر ظاهرها ويغور في أعماقها فإنه يحصل على فوائدها وثمارها بدرجة أكبر تتناسب مع درجة تعمقه فيها.

من هنا نفهم أن تصريح القرآن الكريم بأن الصلاة تردع عن الذنوب أوامره بالاستعانة بالصلاة لا يعني أن كل صلاةٍ وبأي نحو أقيمت تشتمل على هذه الآثار؛ بل إن هذه الآثار تتناسب مع عمق الصلاة ومع درجة التزم المصلي بآدابها وشروطها، فإذا عرفت

مرتبتها أمكن معرفة طبيعة الثمار المرجوة.

العوامل المحققة لثمار الصلاة

إذا سألت: ما هي الشروط التي يجعل الالتزام بها الصلاة تتحلى بـالعمق وبالكيفية العالية المطلوبة؟ نقول للإجابة على هذا السؤال: ثمة عدة أمور تحقق هذا الهدف لا ينبغي للمصلي أن يغفل عنها:

أ: الإقبال الوجداني على الله

الإقبال على الله هو روح الصلاة، والصلاة الخالية من هذه الجوهرة الأساسية هي جسد بلا روح ولذلك تكون قيمتها قليلة جداً، وهذا هو سر قول رسول الله ﷺ:

((كم من قائم حظه من صلاته التعب والنصب))[٤]، ((ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل))[٥].

فالصلاة التي تؤدى والقلب في غفلة عنها لا تنفع صاحبها شيئاً؛ بل لو قلنا أنها تضره لما قلنا باطلاً لأن تبارك وتعالى يقول: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ﴾[٦].

وعن أمير المؤمنين علي عليه السلام قال:

((الالتفات في الصلاة اختلاس من الشيطان فإياكم والالتفات في الصلاة))[٧].

كما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال:

((أيما عبد التفت في صلاته قال الله:

يا عبدي إلى من تقصد ومن تطلب؟

أرباً غيري تريد؟ أو رقيباً سواي تطلب؟ أو جواداً خلاي تبغي؟ وأنا أكرم الأكرمين وأجود الأجودين وافضل المعطين؟! أثيبك ثواباً لا يُحصى قدره. أقبل علي فإني إليك مقبل وملائكتي إليك مقبلون.

فإن أقبل زال عنه إثم ما كان منه. فإن التفت ثانية أعاد الله مقالته، فإن أقبل على صلاته غفر الله له وتجاوز عنه ما كان منه. فإن التفت ثالثة أعاد الله مقالته، فإن اقبل على صلاته غفر الله ما تقدم من ذنبه. فإن التفت رابعة أعرض الله عنه وأعرضت الملائكة عنه، ويقول: وليتك عبدي ما توليت))[٨].

من هنا يتضح أن صلاة المنشغل بنفسه المعرض عن ربه هي ذنب بحد ذاتها فكيف يمكن أن تنهى عن الذنب؟!

العلاج الأساسي للغفلة عن الله أثناء الصلاة هو دوام التوجه إليه

وقد تسال السؤال نفسه الذي يسأله الكثيرون: لماذا أننا وكلما سعينا لإحضار قلوبنا في الصلاة والتوجه بها إلى الله والإقبال عليه والتحرر من تشتت الأفكار قليلاً ما يحالفنا التوفيق للحصول على ما

نسعى إليه؟ هل يوجد ـ حقاً ـ ما يعيننا على الحصول على هذه الجوهرة ـ حضور القلب والإقبال على الله ـ وهي روح الصلاة؟

فنقول في الجواب: إن كنت تطلب دواءً لهذه الحالة تتناوله بيسر فتشفى مما أنت فيه في ليلةٍ وضحاها، فإننا نقول ـ وبصورة جازمة ـ: لا يوجد مثل هذا الدواء السحري قطعاً.

ولكن إن كنت من أهل العمل مستعداً لخوض جهاد طويل؛ فإننا نقول لك بكل ثقة: إن العلاج الذي تطلبه متوفر.

ولتوضيح هذا المجمل نقول: إذا غلبت على الإنسان حالة أو صفة معينة، فإنّها تُظهر آثارها في جميع حياته دون أن يستطيع التخلص منها، ولذلك فإن الذي يُديم ذكر الله ولا يغفل عنه في جميع أحواله: في السوق والشارع والمدرسة والبيت ومحل العمل؛ من الطبيعي أن يكون حاضر القلب في صلاته أيضاً مقبلاً فيها على ربه بكل وجوده فلا يغفل عنه سبحانه وتعالى؛ وعلى العكس حال الغافل عن ذكر الله في جميع أحواله: في البيت والسوق والمدرسة ومحل العمل وغيرها؛ فهو منشغل بصورة كاملة بالأمور المادية وشؤون حياته الدنيوية المادية، وقلبه متعلق بغير الله تبارك وتعالى؛ مثل هذا الشخص يعجز ـ بلا شك ـ عن إحضار قلبه في الصلاة وقطع تعلقاته الدنيوية والإقبال به على الله عز وجل فيها، بل يستمر قلبه

في انشغاله المعهود قبل الصلاة ويبقى غارقاً ـ وهو يصلي ـ فيما كان غارقاً فيه قبل الصلاة.

يقول عز من قائل في وصف عباده المؤمنين:

﴿رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ﴾(٩).

فلا يخفى أنهم إذا كانوا لا يغفلون عن ذكر الله بسبب أثناء التجارة والبيع فأنهم لا يغفلون عنه ـ بدون شك ـ أثناء الوضوء وعند استقبالهم القبلة وإقامة الصلاة؛ على العكس مما هو عليه نحن ـ أنا وأنت ـ، فنحن غارقون في شؤون حياتنا الدنيا قبل الصلاة فإذا وقفنا للصلاة فمن الطبيعي أن نصبغها بصبغة شؤون الحياة الدنيا التي غرقنا فيها.

وبعبارة أوضح أقول: إن أولياء الله وعباده المخلصين يحملون صلاتهم معهم وهم في أجواء التجارة والبيع، أي أنهم هناك أيضاً مقبلون على الصلاة: ((طوبى للذين هم في الصلاة دائماً))(١٠):

﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾(١١).

أما نحن المتخلفون عن هذا الركب القدسي؛ فإننا نحمل التجارة والبيع معنا وندخل بها أجواء الصلاة، فهذه المكاسب الدنيوية هي الهدف الذي يستحوذ على تفكيرنا حتى ونحن نؤدي الصلاة! نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا.

إدامة ذكر الله

إذن، إن كنت ـ يا عزيزي ـ صادقاً في سعيك لإحضار قلبك أثناء الصلاة والإقبال به على الله واجتناب الغفلة والالتفات عنه، فعليك أن تبدأ في السعي لذلك قبل الصلاة؛ وذلك بأن تجتهد في أن تكون ذاكراً لله مجتنباً الغفلة عنه في جميع أحوالك، فإذا حالفك التوفيق لذلك فإن قلبك سيكون مقبلاً على الله أثناء الصلاة وإلا فلا.

وصية من العلامة الطباطبائي بشأن حضور القلب

في أواخر عمر العلامة الطباطبائي تتئُّ عندما كان راقداً على فراش المرض، سأله أحد الأشخاص عن السبيل إلى حضور القلب والإقبال به على الله أثناء الصلاة، فأجابه بكلمةٍ واحدة كررها عدة مرات بلهجةٍ خاصة وتأكيد مشهود قال: المراقبة، المراقبة.

ومقصود هذا العالم الجليل هو: إذا أردتم الفوز بحضور القلب أثناء الصلاة والإقبال به على الله وعدم الغفلة عنه، فعليكم أن تكونوا من أهل المراقبة والتوجه إلى الله في جميع أحوالكم، فإذا صارت هذه الحالة ملكة فيكم وغلبت عليكم عندها ستبقى حاكمة عليكم أثناء الصلاة أيضاً، أما إذا كنتم غافلون عن الله في جميع أوقاتكم وترسخت فيكم هذه الغفلة فلن تتخلصوا منها أثناء الصلاة أيضاً.

التدبر في أذكار الصلاة

إضافة إلى ما تقدم؛ فإن من العوامل ذات التأثير البالغ في الحصول على حضور القلب والتوجه إلى الله أثناء الصلاة هو الانتباه إلى معاني ألفاظ الصلاة وأذكارها التي يجريها المصلي على لسانه، في حين أن الغفلة عنها هو أحد العوامل المؤدية تشتت الذهن وعدم حضور القلب في الصلاة، ولذلك يلزم جميع المسلمين تعلم ترجمة أذكار الصلاة بالحد المطلوب كحد أدنى إذا لم يتمكنوا من تعلم اللغة العربية التي هي لغة العالم الإسلامي برمته والتي ينبغي للجميع تعلمها. وواضح أن الذي يعرف ما يقول أثناء الصلاة ويفهم ما يطلبه من الله فيها هو أوفر حظاً في تحصيل حضور القلب والتوجه إلى الله من المصلي الذي يردد بلسانه مجموعة من الألفاظ لا يفقه منها شيئاً.

ب: المحافظة على أداء الصلاة في أول الوقت

الالتزام بأداء الصلاة في أول وقتها هو العامل الثاني الذي يساهم في جعلها ذات قيمة عالية في حين أن الغفلة عن إقامتها في أول وقتها يفقدها آثارها أو يقلل من قيمتها، قال رسول الله ﷺ: ((لا يزال الشيطان ذعراً من المؤمن ما حافظ على مواقيت الصلوات الخمس، فإذا ضيعهن اجترأ عليه فأدخله في العظائم))(١٢).

وروى عمار بن موسى الساباطي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

((من صلى الصلوات المفروضات في أول وقتها وأقام حدودها رفعها الملك إلى السماء بيضاء نقية وهي تهتف به تقول: حفظك الله كما حفظتني وأستودعك الله كما استودعتني ملكاً كريماً.

ومن صلاها بعد وقتها من غير علة ولم يقم حدودها رفعها الملك سوداء مظلمة وهي تهتف به: ضيعتني ضيعك الله كما ضيعتني ولا رعاك الله كما لم ترعني))[١٣].

وروى قتيبة الأعشى عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

((إن فضل الوقت الأول على الآخر كفضل الآخرة على الدنيا))[١٤].

وروي أنه: ((كان علي عليه السلام يوماً في حرب صفين مشتغلاً بالحرب والقتال، وهو مع ذلك يراقب الشمس، فقال له ابن عباس: يا أمير المؤمنين ما هذا الفعل؟ قال: أنظر إلى الزوال حتى نصلي! فقال له ابن عباس: وهل هذا وقت الصلاة؟ إن عندنا لشغلا بالقتال عن الصلاة! فقال عليه السلام: علام نقاتلهم؟! إنما نقاتلهم على الصلاة))[١٥].

ج: الالتزام بإقامتها في المسجد

العامل الثالث الذي يرفع من قيمة الصلاة وشرفها وفضيلتها هو إقامتها في المسجد، يقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

((الصلاة في المسجد الحرام مائة ألف صلاة والصلاة في مسجد المدينة عشرة آلاف صلاة، والصلاة في مسجد بيت المقدس ألف صلاة، والصلاة في المسجد الأعظم مائة صلاة، والصلاة في مسجد القبيلة خمس وعشرون صلاة، والصلاة في مسجد السوق إثنتا عشرة صلاة، وصلاة الرجل وحده في بيته صلاة واحدة))[١٦].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

((عليكم بإتيان المساجد فإنها بيوت الله في الأرض، ومن أتاها متطهراً طهره الله من ذنوبه وكتب من زواره فأكثروا فيها من الصلاة من الدعاء))[١٧].

وعن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام قال:

((لا صلاة لمن لم يشهد الصلوات المكتوبات من جيران المسجد إذا كان فارغاً صحيحاً))[١٨].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إنه قال في خطبةٍ له:

((من مشى إلى مسجدٍ من مساجد الله فله بكل خطوةٍ خطاها حتى يرجع إلى منزله عشرُ حسنات ويُمحى عنه عشر سيئات ويرفع له عشر درجات))[١٩].

ح: الحرص على إقامتها جماعة مع المؤمنين

الأمر الرابع الذي يضفي على الصلاة بركة إضافية خاصة تزيد

من قيمتها هو إقامتها جماعة، فلا ينبغي للمصلي الغفلة عن هذا العامل، روي في الأخبار عن رسول الله ﷺ قال:

((أتاني جبرئيل مع سبعين ألف ملك بعد صلاة الظهر، فقال: يا محمد إن ربك يقرؤك السلام وأهدى إليك هديتين لم يهدها إلى نبي قبلك.

قلت: وما تلك الهديتان؟

قال: الوتر ثلاث ركعات والصلاة الخمس في الجماعة.

قلت: يا جبريل وما لأمتي في الجماعة.

قال: يا محمد إذا كانا إثنين كتب الله لكل واحد بكل ركعة مائة وخمسين صلاة، وإذا كانوا ثلاثة كتب لكل واحد بكل ركعة ستمائة صلاة، وإذا كانوا أربعة كتب الله لكل واحد بكل ركعة ألفاً ومائتي صلاة، وإذا كانوا خمسة كتب الله لكل واحد بكل ركعة ألفين وأربعمائة صلاة، وإذا كانوا خمسة كتب الله لكل واحد منهم بكل ركعة أربعة آلاف وثمانمائة صلاة وإذا كانوا سبعة كتب الله لكل واحد منهم بكل ركعة تسعة آلاف وستمائة صلاة، وإذا كانوا ثمانية كتب الله لكل واحد منهم بكل ركعة تسعة عشر ألفاً ومائتي صلاة، وإذا كانوا تسعة كتب الله لكل واحد منهم بكل ركعة ستة وثلاثين ألفاً وأربعمائة صلاة، وإذا كانوا عشرة كتب الله لكل واحد منهم بكل

ركعة سبعين ألفاً وثمانمائة صلاة، فإن زادوا على العشرة، فلو صارت السموات كلها مداداً والأشجار أقلاماً والثقلان مع الملائكة كتاباً لم يقدروا أن يكتبوا ثواب ركعة واحدة)) [٢٠].

كما روى الإمام الصادق عليه السلام الحادثة التالية التي وقعت في عهد حكومة أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه: ((بلغه أن قوماً لا يحضرون الصلاة في المسجد، فخطب فقال: إن قوماً لا يحضرون الصلاة معنا في مساجدنا، فلا يؤاكلونا ولا يشاربونا ولا يناكحونا ولا يأخذوا من فيئنا شيئاً أو يحضروا معنا صلاتنا جماعة...)).

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال:

((لا صلاة لمن لم يصل في المسجد مع المسلمين إلا من علة)) [٢١].

وروى الفضل بن شاذان عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام قال:

((... فإن قال: فلم جُعلت الجماعة؟ قيل: لأن لا يكون الإخلاص والتوحيد والإسلام والعبادة لله إلا ظاهراً مكشوفاً مشهوداً لأن في إظهاره حجة على أهل المشرق والمغرب لله عز وجل... مع ما فيه من المساعدة على البر والتقوى والزجر عن كثير من معاصي الله عز وجل)) [٢٢].

والآن ـ يا عزيزي ـ وبعد أن عرفت أهمية وآثار العوامل

المتقدمة؛ من الضروري التأكيد على حقيقة أنك إذا أردت أن تكون لصلاتك آثارها المطلوبة فتصدك وتنهاك عن الفحشاء والمنكر والرجس؛ فعليك أن تجتهد بكل جهدك في الالتزام بالعوامل المذكورة وتقرن صلاتك بها، وعليك أن تقبل بقلبك على الله أثناء الصلاة قدر المستطاع، وأن لا تؤخر إقامتها عن أول وقتها وتقيمها جماعة في المسجد ما لم يكن لك عذر عن ذلك.

فإذا حالفك التوفيق لذلك فإنك ستجد نفسك حتماً مبتعداً ـ بصورة تدريجية ـ عن السيئات والذنوب فائزاً بمقام القرب من الله، وعلى العكس من ذلك سيكون حالك إذا لم تلتزم بالشروط المذكورة لأن آثار صلاتك ستكون سلبية في هذه الحالة وستبقى بعيداً عن الله بل تزداد منه بعداً. يقول رسول الله ﷺ:

((من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم تزده من الله إلا بعداً)) [٢٣].

خاتمة ووصية

من المناسب ـ ونحن نصل إلى خاتمة هذا البحث ـ أن نلخصه، فقول: إن العوامل التي تمهد الطريق لارتكاب المعاصي والسقوط فيها ثلاثة:

أ: ضعف الإيمان

ب: الغفلة عن العقائد الحقة

ج: ضعف الإرادة.

فإذا كان المبتلى بالمعاصي متأذياً من حاله وصادقاً في السعي للتخلص من شر المعاصي؛ فعليه أن يبادر ـ قبل أي عمل آخر ـ إلى التعرف على جذور هذه العوامل في نفسه، ويجتهد في السعي لتطهير نفسه منها باستخدام الأساليب المناسبة، فإنه بذلك سيتطهر بيسر من الذنوب ـ بعد مدة من المجاهدة ـ ويلتحق بركب المتقين.

إذن، يا عزيزي؛ إذا كنت تريد إصلاح نفسك وتزكيتها؛ وإذا كنت لا ترغب في التخلف عن قافلة المتطهرين الناجين؛ فبادر ـ قبل فوات الأوان وضياع الفرصة ـ لخلاص نفسك والبحث عن طريق النجاة.

فإذا كنت ضعيف الإيمان متزلزل العقيدة، فاجتهد لتصحيح عقائدك واكتساب الاساس العقائدي المتين بالرجوع إلى الحكمة والحكماء.

وإذا كانت مشكلتك في مجال العمل؛ فاجتهد في تنقية قلبك وتجليته بالرجوع إلى القلب الفطري وأهل القلوب الحية.

وخلاصة الكلام ـ يا عزيزي ـ هي:

شمر ساعد الهمة وتحرك

فالوقت ضيق وأمامك عمل كثير.

﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

١٣/ شعبان/ ١٤١٦هـ.ق

قم المقدسة

حسن رمضاني

الفهرست